الأصل الثالث عشر
الأولياء وكراماتهم

الأصل الثالث عشر

الأولياء وكراماتهم

قال الإمام حسن البنا في الأصل الثالث عشر من أصوله العشرين:

(ومحبة الصالحين، واحترامهم، والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم: قربة إلى الله تبارك وتعالى.

والأولياء هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٣].

والكرامة ثابتة لهم بشرائطها الشرعية، مع اعتقاد أنهم - رضوان الله عليهم - لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا في حياتهم، أو بعد مماتهم، فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم).

نقاط أربعة في هذا الأصل:

في هذا الأصل أربع نقاط هامة:

الأولى: وجوب محبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم.

الثانية: تحديد من هم أولياء الله الصالحون.

الثالثة: إثبات الكرامة لهم بشرائطها الشرعية.

الرابعة: اعتقاد أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، في حياتهم، وبعد مماتهم، فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم.

النقطة الأولى: حب الصالحين:

أما محبة الصالحين فهي دليل الإيمان، وبرهان محبة الله، فإن من أحب إنسانا حق الحب، أحب من يحبه، وعادى من يعاديه. وكذلك من أحب الله صادقا من قلبه، أحب أحباب الله، وعادى أعداء الله.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح: « ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان، وذكر منها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله » [١].

(١) متفق عليه رواه البخاري في الإيمان (١٦) ومسلم في الإيمان (٤٣) عن أنس.

وفي غيره: «أوثق عرا الإيمان: الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله عز وجل»[1].

وسواء كان الصالحون أحياءً أم أمواتا، فإن حبهم قربة إلى الله. ولهذا نحن نتقرب إلى الله بحب جميع أنبيائه ورسله، الذين هدوا الناس إلى الله، وأخرجوهم من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

كما نحب أصحاب رسول الله ﷺ، ومن تبعهم بإحسان؛ لأنهم الذين نقلوا إلينا القرآن الكريم حتى وصل إلينا بالتواتر اليقيني، وهم الذين رووا السنن القولية والفعلية والتقريرية، وفيها بيان القرآن، وهم الذين جاهدوا في الله حق الجهاد، وبلغوا رسالة الإسلام إلى العالمين، وبفضل إيمانهم وجهادهم ودعوتهم: انتشر نور الإسلام في الدنيا، وصار أجدادنا مسلمين، ونشأنا نحن في ظلال الإسلام.

وكل من دعا إلى الله على بصيرة، أو جاهد في سبيل هذا الدين، فعلى المؤمن أن يحبه، وإن باعد بينهما الزمان أو المكان، من عالم، أو داعية، أو مرب، أو قائد، أو مصلح، أو خليفة، أو أمير، أو وزير.

ولهذا نجد المؤمنين - كل المؤمنين- يحبون مثل: عمر بن عبد العزيز، والأئمة الأربعة، والبخاري ومسلما، والجنيد، والغزالي، والعز بن عبد السلام، والنووي، وابن تيمية، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قطز، وغيرهم من علماء الإسلام، وأبطال الإسلام، ولا سيما الصحابة الكرام الذين أثنى الله عليهم ورسوله.

حتى إن المسلم المفرّط في جنب الله، لا يخلو قلبه من هذه العاطفة الكريمة، عاطفة الحب لأحباب الله الصالحين من المؤمنين الصادقين. وفي هذا يقول بعضهم (وينسب إلى الشافعي):

أحب الصالحين ولستُ منهم عساني أن أنال بهم شفاعة
وأكره من بضاعتُه المعاصي وإن كنا سواء في البضاعة

---

(١) رواه الطيالسي والحاكم والطبراني في الكبير والأوسط عن ابن مسعود، والطبراني في الكبير عن ابن عباس، وأحمد وابن أبي شيبة وابن نصر عن البراء، كما في صحيح الجامع الصغير للألباني. وقد ذكر فيه أنه صحيح برقم (٢٥٣٩) وانظر ما قاله مخرّجو المسند برقم (١٨٥٢٤) في مسند البراء بن عازب. وقد ذكروا أنه حسن بشواهده.

فأما الذي يدعي حب الله ورسوله، ولا يحب أحبابهما وأولياءهما، فإن إيمانه مدخول. فإن علامة الإيمان التي لا تخطئ: هي الحب في الله، والبغض في الله.

تفاضل درجات الأولياء:

وقد أحسن الأستاذ البنا في اختيار التعبير بـ (الصالحين). وهو أفضل من التعبير بـ (الأولياء) لما لهذه اللفظة من ظلال وإيحاءات غير سليمة في عقول العوام. أما كلمة (الصالحين) فهي هي كلمة مكررة في القرآن، وصف الله بها الأخيار من المصطَفَينَ من عباده من الأنبياء والمؤمنين، ودعا الأنبياء ربهم أن يلحقهم بالصالحين، أو يدخلهم في الصالحين.

وقد دعا يوسف عليه السلام ربه، فقال: ﴿ **تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** ﴾ [يوسف: ١٠١]. ودعا سليمان ربه فقال: ﴿ **رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [النمل: ١٩].

وقال الله تعالى عن خليله إبراهيم: ﴿ **وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [النحل: ١٢٢]. وقال عن المسيح عيسى بن مريم: ﴿ **وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ** ﴾ [آل عمران: ٤٦]. وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] وقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٩]. وفي التشهد نقرأ: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين»[(١)].

وكلمة ﴿ **الصَّالِحِينَ** ﴾ في الأشخاص، مثل كلمة ﴿ **الصَّالِحَاتِ** ﴾ في الأعمال: كلمة جامعة تشمل كل معاني الخير، يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ** ﴾ [العنكبوت: ٩]. فكل من آمن وعمل صالحا: داخل في الصالحين، وهؤلاء الصالحون هم أولياء الله حقا، أي أحبابه ﴿ **يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ** ﴾ [المائدة: ٥٤]. كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ**

(١) إشارة إلى ما رواه البخاري في كتاب الأذان رقم (٨٣٥).

يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٦] . فهم أولياء الله كما أن الله وليهم : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ [البقرة :٢٥٧]، ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ** ﴾ [محمد : ١١] .

ولقد ذكر القرآن أن الصلاح ينفع صاحبه، وينفع ذريته من بعده، كما قال تعالى : ﴿ **وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا** ﴾ [الكهف : ٨٢] .

ومن مقتضى حب أولياء الله الصالحين : احترامهم، وتقدير فضلهم، والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم، وطاهر سيرتهم . وهذا هو الثناء الذي ينفع المثْني، والمستمع له، والمثْنَى عليه . ففيه تكون الأسوة الحسنة، والاقتداء الجميل .

والمسلم حين يفعل ذلك، يتبع سنة الله تعالى، وسنة رسوله في الثناء على الصالحين من عباده المؤمنين، ومن أجل ذلك ساق القرآن قصص الأنبياء وكررها، وذكر قصص المؤمنين من غير الأنبياء، مثل قصة أهل الكهف، وقصة مؤمن آل فرعون، ومؤمن سورة (يس) ومؤمني سورة (البروج)، لنتخذهم مثلا لنا، ونستفيد العبرة من سيرتهم ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ** ﴾ [يوسف :١١١] .

كما أثنى على أصحاب رسوله ﷺ في عدد من سور القرآن، مثل أواخر سورة الأنفال، وفي سورة التوبة، وفي آخر سورة الفتح، وفي سورة الحشر، وغيرها .

وحسبنا أن نقرأ في آخر الفتح قوله تعالى : ﴿ **مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [الفتح :٢٩] .

كما أثنى الرسول الكريم على أصحابه في أحاديث كثيرة، مثل قوله : « خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »[١] .

---

(١) متفق عليه رواه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٥١) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٣٣) عن ابن مسعود .

«لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده! لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا، ما بلغ مد أحدهم، ولا نصيفه»(١).

أما شغل الوقت بما وقع على أيديهم من خوارق، بعضها تهاويل، وبعضها أساطير، وقليل منها حق واقع، فليس من السلوك الإيجابي المثمر، وإنما هو عمل سلبي فارغ، يتسلّى به عشاق الغرائب، وثرثارو المجالس، ونسّاج الحكايات!

ومن المؤسف أن تجلس في مجلس، تريد أن تحدث الناس فيه، في علم نافع، أو عمل صالح. فيختطف منك الحديث بعض هؤلاء الذين ملأوا جعبتهم بالكثير والكثير من هذا اللون المطرب المثير، من الحكايات والعجائب. فأما العامة وأشباههم فيخرجون من مجلسهم، وهم من الطرب شبه مخمورين! وأما الخاصة فيهزأون بالدين وأهله، لأنهم - في نظرهم - متخلفون منغلقون لا يحترمون قوانين الكون، ولا يفكرون في حل مشكلاتهم بطريق علمي إيجابي سديد!

وليس معنى هذا إنكار الكرامات والخوارق، التي يظهرها الله على أيدي أوليائه. فهذا أمر ثابت كما سنشرحه في النقطة الثالثة من هذا الأصل. وإنما ننكر الغلو، وشغل الوقت والجهد، بهذا النوع من الحديث.

كما أن إنكار هذا الضرب من الكلام، لا يعني أيّ مساس بمحبة الصالحين واحترامهم، فهم أنفسهم لا يحبون هذه السلبية الهدّامة.

فهذا هو موقفنا من أولياء الله الصالحين: نحبهم ونحترمهم، ونثني عليهم بما عُرف من طيب أعمالهم. ولا نغلو فيهم، فإن الغلوّ في الصالحين من أوسع أبواب الشرك. كما سيأتي.

ومن لوازم هذا الموقف: أننا نكره من يكره الصالحين من هذه الأمة، ونعادي من يعاديهم؛ لأن من عاداهم -وقد ثبت صلاحهم وتقواهم لله عز وجل- فإنما يكره طاعة الله وتقواه، ويصد عن سبيل الله، فهو بهذا يعادي الله تعالى جهرة علانية.

ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل قال: «من عادى لي وليّا فقد آذنته بالحرب»(٢).

---

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٧٣) عن أبي سعيد ومسلم في فضائل الصحابة (٢٥٤٠) عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) عن أبي هريرة.

وجاء في حديث آخر: «من عادى أولياء الله، فقد بارز الله بالمحاربة»[(١)] .

النقطة الثانية: من هو الولي؟:

النقطة الثانية مما تضمنه هذا الأصل: تعريف: من هو الولي، أو من هم الأولياء الذين أثنى الله عليهم في كتابه، وأثنى عليهم رسوله ﷺ؟

وهذا التعريف أو التحديد مهم جدا، فإن عوام المسلمين قد تكونت عندهم أفكار ومفاهيم نمت وتكاثرت، حتى أصبح لهؤلاء الأولياء في أذهانهم (عالم) غير عالم البشر، لا يخضع للسنن التي أقام الله عليها هذا الكون، ولا لشبكة الأسباب والمسببات التي أجرى عليها نظامه، ومضى بها قدره وشرعه، وخلقه وأمره.

وكأني بالأنبياء لم يحظوا عند عامة المسلمين بما حظي به هؤلاء الذين يسمونهم أولياء.

إن الولي عندهم ليس شخصا مثلي ومثلك، بل ولا مثل الأئمة الكبار في الفقه مثل: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وأئمة الحديث مثل: البخاري، ومسلم، وأبي داود. والترمذي. وسائر أصحاب الكتب الستة، بل ولا مثل: الفقهاء السبعة كسعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد، وغيرهما، بل ولا مثل: ابن عمر، وابن عباس، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وغيرهم من الصحابة حتى العشرة المبشرة بالجنة!

إنما هم أناس من طراز آخر: الحجاب مكشوف لهم، يقرأون ما في السرائر،ويعرفون ما يأتي به الغد، ويستطيعون التصرف في الكون، بما يريدون، فيعطلون الأسباب إن أرادوا، ويغيرون السنن إن شاءوا.

هؤلاء الأولياء لهم عالم باطن غير عالمنا الظاهر، ولهم قوانين غير قوانين عالمنا الذي نعيش فيه، ولهم زعماء يسمونهم (الأقطاب الأربعة) كل قطب منهم له ربع الكون، فيتصرف فيه بما يشاء، وهم عند العوام في مصر: أحمد البدوي، وعبد القادر الجيلاني، وأحمد الرفاعي، وإبراهيم الدسوقي.

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم عن معاذ بن جبل وقال: صحيح ولا علة له، ووافقه الذهبي (١ / ٤). وأما في زوائد ابن ماجة فضعفه بابن لهيعة، مع أن الراوي عنه هو: عبد الله بن وهب، والتحقيق: أنه إذا روي عنه أحد العبادلة ومنهم ابن وهب فحديثه مقبول، ويصححه كثير من المحققين. وكان الأولي أن يضعف بعيسي بن عبد الرحمن – في سند ابن ماجة – وهو متروك، وسند الحاكم في الموضع الأول ليس فيه ابن لهيعة ولا عيسي، فهو العمدة. انظر: كتابنا (المنتقي من الترغيب والترهيب (١ / ١١١).

والعامة في مصر يعتقدون أن للأولياء (ديوانا) خاصًا ترأسه السيدة زينب دفينة مصر فيما يزعمون، وهم ينادونها في استعاناتهم المبتدعة قائلين: يا رئيسة الديوان، يا أم هاشم !

وهذا كله ضرب من الهوس، ومن (الغلو) في الدين الذي هلك به من قبلنا، وأنكره القرآن على أهل الكتاب من قبلنا: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ** ﴾

[المائدة: ٧٧].

﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ** ﴾ [النساء: ١٧١] وقال ﷺ: «إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم الغلو في الدين»(١).

لهذا كان من المهم؛ أن نحدد: ما هو الولي؟ أو من هو الولي ؟ حتى يتميز الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس هناك أصدق ولا أبلغ ولا أوضح من القرآن الذي ذكر (أولياء الله) في ثلاث آيات من كتابه، وأثنى عليهم، وبيّن حقيقتهم، فقال تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤].

فبعد أن ذكر القرآن أن هؤلاء -أولياء الله- لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وصفهم لنا فقال: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ فهم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى، أي صحت عقيدتهم، واستقام عملهم، فالإيمان هو الأساس، والتقوى هي البناء. والتقوى كلمة جامعة يراد بها تحويل الإيمان من فكرة في العقل والقلب إلى عمل منظور، وواقع معيش في الحياة.

ولكن المتقين ليسوا ملائكة مطهرين، ولا أنبياء معصومين، بل هم بشر يجاهدون أنفسهم ليرقوا بها من النفس الأمارة إلى النفس اللوامة، ثم النفس المطمئنة، والله تعالى يقول: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾

[العنكبوت: ٦٩].

---

(١) رواه أحمد (١٨٥١) عن ابن عباس وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، كما رواه النسائي (٣/١١٧) وابن ماجة (٣٠٢٩) وابن خزيمة (٢٨٦٧) وابن حبان (٣٨٧١) والحاكم (١/٤٦٦) والطبراني (١٢٧٤٧).

ميزَة المتقين: أنهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. ومعنى: ﴿ تَذَكَّرُوا ﴾: أي تذكروا جلال الله ورقابته عليهم، وحسابه لهم، فبهذا يبصرون الطريق، وينزعون عن الضلال والغيّ والانحراف. حتى لو زلت أقدامهم وسقطوا في المعصية، فسرعان ما تستيقظ ضمائرهم، وتلومهم أنفسُهم، ويرجعون إلى ربهم، يَقْرَعون بابه تائبين مستغفرين، كما قال تعالى في وصف المتقين الذين أعد لهم جنة عرضها السماوات والأرض: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

سئل الإمام الجنيد: هل يزني الوليّ؟ فأطرق برأسه، فقال: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

ومراتب الأولياء متفاوتة، فمنهم الأبرار، ومنهم المقربون، وقد قيل: حسنات الأبرار سيئات المقربين! وبتعبير آخر، منهم: المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله، ولكن ليس منهم الظالم لنفسه، ولو حدث فسرعان ما يتوب ويرجع. يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [فاطر: ٣٢].

والتفاضل في الدرجات مقرر، حتى في شأن الأنبياء،والرسل، كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة:٢٥٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴾ [الإسراء: ٥٥].

كذلك الصحابة يتفاضلون فيما بينهم، فقد نوه القرآن بقدر السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فقال: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]. كما أثنى على أهل بيعة

الرضوان، فقال تعالى: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح: ١٨].

ولكن الصحابة كلهم على خير: السابقون منهم واللاحقون، على تفاضلهم في المراتب، كما قال تعالى: ﴿ **لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ** ﴾ [الحديد: ١٠].

وما ذكره القرآن هنا عن أولياء الله: شبيه بما ذكره عن أهل التوحيد والاستقامة من عباده، كما في قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ * نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ** ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

فقوله في وصف هؤلاء: الذين قالوا: ﴿ **رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** ﴾: مثل قوله في الآية الأخرى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾. فالمقصود بقولهم: ﴿ **رَبُّنَا اللَّهُ** ﴾ نبذ الأرباب الأخرى التي اتخذها الناس قديما وحديثا، وأنه لا رب لهم غير الله، فليسوا كأهل الكتاب الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم، وليسوا كالذين اتخذوا ملوكهم أربابا من دون الله، كالذين قال لهم فرعون: أنا ربكم الأعلى فصدّقوه، واستخفهم فأطاعوه.

لهذا كانت رسائل النبي ﷺ إلى قيصر وأمراء النصارى تختم بهذه الآية ﴿ **تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فهؤلاء - حين قالوا: ربنا الله - أعلنوا استمساكهم بالعروة الوثقى: عروة التوحيد، فلا يبغون غير الله ربا، ولا يتخذون غير الله وليا، ولا يبتغون غير الله حكما.

ثم إنهم استقاموا على هذه الكلمة، وما تتطلبه منهم من أخلاق وأعمال، وثبتوا عليها، حتى الموت، لم يروغوا روغان الثعالب، ولقوا في سبيل الله ما لقوا من

المحن والمشقّات، كما لاقى الرسول وصحابته الكرام: ﴿ **الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ** ﴾ [الحج: ٤٠].

ولا أدري لماذا احتفى الناس بآية يونس التي تحدثت عن (أولياء الله) ولم يحتفوا بآية فصلت التي تحدثت عن ﴿ **الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** ﴾.

ولم أجد آية أخرى تحدثت عن (أولياء الله) بهذا الاسم وهذا العنوان، على حين تحدثت عشرات الآيات عن (المؤمنين) وعن (المتقين) وعن (المحسنين) وعن (عباد الرحمن) وعن (أولي الألباب) وعن (الأبرار).

فلماذا كان التركيز على هذا الاسم (الأولياء) وحده؟ ولماذا شاع وذاع هذا العنوان أو هذا المصطلح، دون غيره من الأسماء والعناوين؟

على أن هذا الاسم، وهذا المصطلح لم يكن له شهرة ولا تنويه خاص في عهد الصحابة رضي الله عنهم، ولا من تبعهم بإحسان.

إنما شاع بعد ذلك، ولا أدري بداية شيوعه – كمصطلح – في أي عصر كانت.

على كل حال، إن الذي يهمنا هنا هو: أن أولياء الله هم: أهل الإيمان والتقوى أو أهل التوحيد والاستقامة، هم كل ممتثل لما أمر الله، مجتنب لما نهى الله.

وكل مؤمن تقي، مستقيم على أمر الله، فهو ولي لله تعالى، وليس من الضروري: أن تقع له مكاشفات، وأن تحدث له كرامات، كما هي صورة الولي في أذهان الناس، فالولي في الصورة الذهنية الشعبية هو صاحب الخوارق في حياته، ومن له ضريح (أو مقام) خاص يدفن فيه بعد وفاته!!

وهذه وتلك من الأوهام التي لا يؤيدها علم ولا دين، وما أنزل الله بها من سلطان، وليس ظهور الكرامات شرطا في الولاية عند أحد يعتد به من أهل العلم.

قال العلامة الآلوسي في تفسير آية (ألا إن أولياء الله):

(وبالجملة متى رأينا الشخص مؤمنا مُتَقيا، حكَمْنا عليه بالولاية، نظرا لظاهر الحال، ووجب علينا معاملته بما هو أهله من التوقير والاحترام، غير غالين فيه بتفضيله على رسول أو نبي أو نحو ذلك، مما عليه العوام اليوم في معاملة من يعتقدونه وليّا، التي هي أشبه شيء بمعاملة المشركين من يعتقدونه إلها!! نسأل الله تعالى العفو والعافية.

ولا يشترط فيه صدور كرامة على يده، كما يشترط في الرسول صدور معجزة، ويكفيه الاستقامة كرامة. كما يدل عليه ما اشتهر عن أبي يزيد قُدِّس سره، بل الولي الكامل لا التفات له إليها، ولا يَودّ صدورها على يده، إلا إذا تضمنت مصلحة للمسلمين خاصة أو عامة.

وفي الجواهر والدرر للشعراني: سمعت شيخنا يقول: إذا زلّ الولي ولم يرجع لوقته، عوقب بالحجاب، وهو أن يحبب إليه إظهار خرق العوائد المسماة في لسان العامة "الكرامات" فيظهر بها، ويقول: لو كنت مؤاخذا بهذه الزلة لقبض عني التصريف! وغاب عنه: أن ذلك استدراج. بل ولو سلم من الزلة فالواجب خوفه من المكر والاستدراج.

وقال بعضهم: الكرامة حيض الرجال، ومن اغتر بالكرامات بالكرى مات! (أي بالغفلة ونوم القلب مات!).

وأضر الكرامات للولي ما أو جب الشهرة؛ فإن الشهرة آفة. وقد نقل عن الخوّاص: أنها تنقص مرتبة الكمال، وأيد ذلك بالأثر المشهور: (خصّ بالبلاء من عرفه الناس) [1]. انتهى.

وكان من كبار الصوفية من جعل اهتمامه بالاستقامة، لا بنيل الكرامة. وطالما نبهوا على أن ظهور الخوارق والكرامات لا يدل على رفعة الدرجات. والمعروف أن أرباب الرياضات الروحية من كل دين – حتى اليهود والنصارى والوثنيين من هندوس وبوذيين وغيرهم – تظهر على أيديهم خوارق تدهش الأبصار، وتذهل الأفكار.

ويقول صاحب (الحِكَم): ليس كل ما ثبت تخصيصه كمل تخليصه. يعني: أن من ثبت تخصيصه بخصائص الكرامات والآيات والكشف وغيرها، كمل تخليصه من العلل والآفات في التقوى والسلوك.

ولذلك ذكر عن سهل التُسْتَري شيء في الآيات والكرامات، فقال: وما الآيات وما الكرامات؟ هي أشياء تنقضي لوقتها. عندي من مكنه الله أن يبدل خُلُقا مذموما بخُلُق محمود، أفضل حالات صاحبها.[2] وهذا هو الفقه حقا.

---

(١) انظر: تفسير الآلوسي (١١/ ١٧٩).

(٢) شرح الحكم للشيخ زروق بتحقيق د. عبد الحليم محمود ص٢٢٨.

وقيل لأبي يزيد: إن فلانا يمشي على الماء!

قال: الحوت أعجب من ذلك؟ إذ هو شأنه.

وقيل له: إن فلانا يطير في الهواء!

قال: الطير أعجب من ذلك، إذ هو حاله.

وقيل له: إن فلانا يمشي إلى مكة ويرجع من يومه!

قال: إبليس يطوف الأرض كلها في لحظة، وهو في لعنة الله[1]!.

السكون إلى الكرامات نقص:

قال أبو علي الرُّذْباري: سمعت أبا العباس الرّقيّ يقول: كنا مع أبي تراب النّخشبي في طريق مكة، فعدل عن الطريق إلى ناحية، فقال له بعض أصحابه: أنا عطشان. فضرب برجله، فإذا عين من ماء زلال! فقال الفتى: أحب أن أشربه في قدح. فضرب بيده الأرض، فناوله قدحا من زجاج أبيض كأحسن ما رأيت، فشرب وسقاني، وما زال القدح معنا إلى مكة!

فقال لي أبو تراب يوما: ما يقول أصحابك في هذه الأمور التي يكرم الله بها عباده؟ فقلت: ما رأيت أحدا إلا وهو مؤمن بها. فقال: من لا يؤمن بها فقد كفر، إنما سألتك من طريق الأحوال! فقلت: ما أعرف لهم قولا فيه. فقال: بلى! قد زعم أصحابك أنها خُدع من الحق، وليس الأمر كذلك، إنما الخدع في حال السكون إليها، فأما من لم يقترح ذلك، فتلك مرتبة الربانيين.

وعلّق على ذلك العلاّمة تاج الدين السبكي قائلا:

قلت: قد اشتمل كلام أبي تراب هذا على فصلين مهمين، يهمنا هنا أن نذكر الفصل الأول، وهو: أن الكرامات والمكاشفات ليست خدعا إلا لمن يقف عندها، ويجعلها شوقه ومقصوده، ولا شك في هذا؛ وقد بالغ قوم في تعظيمها بحيث سُلبوا بها المواهب، وبالغ آخرون في امتهانها، بحيث لم يَعدُّوها شيئا. والحق ما ذكره أبو تراب من أن السكون إليها نقص. فمن الواضح الجليّ الذي لا ينكره عارف: أن العارف لا يقف عندها، وإنما مطلوبه وراءها، وهي تقع في طريقه، وليس للواقع في

(١) المصدر السابق.

الطريق من الطريق صفة، ومن وقف عندها سقط في مهاوي المهلكات، ومن كانت هي مطلوبه فهو مغرور، ويَبْعُد وصوله إليها، وإنما يصل إليها من لا يراها. فافهم ما يُلقى إليك.

فإن قلت: فلأي معنى يُظهرها مظهروها، وهي على ما تزعم أشياءُ لا يلقون إليها بالا؟

قلت: ظهورها يقع على أنحاء، ربما لم يكن باختيار صاحبها، وهو كثير، بل صار بعض الأئمة -كما نقل إمام الحرمين في «الشامل» - إلى أن الكرامات لا تكون أبدا إلا على هذا الوجه. فعلى هذا الوجه لا سؤال، ولكن هذا مذهب ضعيف غير مَرضي عند المحصِّلين، ولا سؤال عليه، وربما كان هو المظهر بها؛ وإنما يكون ذلك لفائدة دينية، من تربية، أو بشارة، أو نذارة، أو غير ذلك حيث يؤذن فيه، ولا يجوز إظهارها حيث لا فائدة، فذلك عند القوم غير جائز له(١).

النقطة الثالثة: كرامات الأولياء:

إن الحقائق الكبيرة تضيع عادة بين المفْرطين والمفَرّطين، بين المغالين في الاعتقاد والإثبات، والمتطرفين في الإنكار والنفي. بين الحسّيين الماديّين الذين لا يؤمنون بغيب، ولا يصدقون بشيء وراء أعينهم وأيديهم، وبين الخياليين والخرافيين الذين يُصدِّقون كل دعوى، ويؤمنون بما لا يعقل.

ونتيجة لهذا التفاوت، بل التباين، تجد من الناس من ينكر أن للكون ربّاً يدبره، وإلها تتجه القلوب إليه بالعبادة والاستعانة، وفي مقابلهم آخرون ملأوا الكون آلهة، فمنهم من ألَّه الملوك أو الكهان، ومنهم ألَّه نوعا أو أكثر من الحيوان، ومنهم من ألَّه الشجر، ومنهم من ألَّه الحجر، ومنهم من أله الشمس والقمر.. إلى غير ذلك من المعبودات التي عرفناها، والتي لا زال كثير منها إلى اليوم.

ونجد في الناس من ينكر أن للإنسان روحا يبقى بعد موته، وإنما هو جسد مادي صِرْف، يفنى بالموت فناء لا رجعة بعده. وفي جنب هؤلاء الذين يؤمنون بوجود الأرواح هائمة في العالم، يستطيعون تحضيرها ومخاطبتها واكتشاف أسرارها متى

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي بتحقيق عبد الفتاح الحلو (٢/ ٣١٤، ٣١٥) طبعة عيسى الحلبي.

شاؤوا! وحجتهم: أن الإنسان روح لا جسد. وقد ألّفوا في ذلك الكتب، وكتبوا المقالات.

ونجد في الناس من ينكر وجود الجن والشياطين، ويعتبر ذلك ضربا من الأساطير الشعبية، وخرافات العجائز، وآخرين يجعلون الجن والشياطين كأنهم آلهة العالم، ومالكو زمامه، فهم المسيطرون والمتحكمون، المطلعون على الغيوب، القادرون على كل شيء.

وفي قضية الكرامات والخوارق تجد هذين الصنفين المتقابلين: صنف الذين ينكرونها ولا يصدقون بوقوعها، ويكذبون ما جاءت به الآثار فيها، وما اشتهر عند الناس وتناقلوه في مختلف الأزمان ومختلف البلدان، ويؤولون ما جاءت به الآيات، وهذا هو موقف المعتزلة من مفكري المسلمين.

وفي مقابلهم نجد الذين يصدقون بكل خارق، ولو كان الدين يرفُضُه، والمنطق يلْفِظُه، والحس يكذبه.

موقف أهل الحق من إثبات الكرامات:

ولكن موقف أهل الحق من المسلمين، وهم المتمسكون بالكتاب والسنة، ممن يؤمن بصدق الوحي، ولا يغفل عن نور العقل: يقفون في كل هذه الأمور موقفا وسطا، بين التطرف في الإثبات، والتطرف في الإنكار.

ودليلهم في ذلك هو الدليل الذي لا يُخطئ ولا يَضل ولا يَنسى. وهو كتاب ربهم، وسنة نبيهم، الذي لا ينطق عن الهوى.

ومن المعلوم المقرر لدى علماء العقائد: أن كل أمر ممكن – أي لم تثبت استحالة وقوعه عقلا– أخبر النص الثابت المعصوم بوقوعه: وجب الإيمان بوقوعه كما أخبر.

فهل الكرامة للأولياء من الأمور الممكنة عقلا أو لا؟

هذا ما يجب التسليم به أولا.

فإن سلم هذا، بقي السؤال الثاني: هل ثبت النص بوقوعها أو لا؟

أما الأمر الأول، فلا شك أن الكرامة هي أمر خارق للعادة، وخوارق العادات ممكنة عقلا؛ إذ الممكن العقلي هو: ما يستوي في العقل وجوده وعدمه. فيمكن أن يوجد، ويمكن ألا يوجد، بلا وجوب ولا استحالة في أحد الطرفين.

أما الدليل على إمكان وجود الخوارق عقلا، فلأن وجودها لا يترتب عليه محال.

أما مجرد استبعاد الوقوع، فذلك لعدم جريان العادة به، ولكنه ليس دليلا على الاستحالة. وكم رأينا في حياتنا - وخصوصا في عصرنا - من أشياء، كانت مستبعدة الوقوع جدا - بل شبه مستحيلة عادة - قد وقعت بالفعل، ورأيناها ولمسناها.

وقدرة الله - كما أثبتت الأدلة العقلية والنقلية - لا حدود لها، ولا قيود عليها، وكل ممكن عقلي صالح لأن تتعلق به القدرة الإلهية، وفقا لإرادته سبحانه ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [يس: ٨٢].

وارتباط الأسباب بالمسببات ليس ارتباطا (عقليا) لا يتصور الانفكاك عنه، بل هو ارتباط (عادي) بحكم جريان سنة الله به. والله تعالى هو واضع نظام الأسباب والسنن الكونية لحكمة يعلمها، ولكنه إن شاء غيَّر بعض هذه السنن لحكمة أخرى.

على أن أوضح دليل على إمكان الكرامات - والخوارق عموما - هو وقوعها بالفعل، كما سيأتي.

الأدلة النقلية على إثبات الكرامات للأولياء:

وأما الأمر الثاني، وهو ثبوت الأدلة النقلية على وقوع الكرامات، فأكتفي فيه بالسطور التالية:

قال الإمام النووي في (بستان العارفين):

«اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات كرامات الأولياء، وأنها واقعة موجودة مستمرة في الأعصار، ويدل عليه دلائل العقول، وصرائح النقول.

أما دلائل العقل، فهي أمرٌ يمكن حدوثه، ولا يؤدي وقوعه إلى رفع أصل من أصول الدين، فيجب وصف الله تعالى بالقدرة عليه، وما كان مقدورا كان جائز الوقوع.

وأما النقول: فآيات في القرآن العظيم، وأحاديث مستفيضة.

أما الآيات: فقول الله تعالى في قصة مريم: ﴿ **وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا** ﴾ [مريم: ٢٥]، قال الإمام أبو المعالي - رحمه الله تعالى - إمام

الحرمين: ولم تكن مريم بنبية بإجماع العلماء(١)، وكذا قال غيره، بل كانت وَلِيّة صِدِّيقة، كما أخبر الله تعالى عنها.

وقوله تعالى: ﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ [آل عمران: ٣٧].

ومن ذلك قصة صاحب سليمان عليه السلام حيث قال: ﴿ **أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾ [النمل: ٤٠]، قال العلماء: ولم يكن نبيا(٢).

ومن ذلك ما استدل به إمام الحرمين وغيره من قصة أم موسى.

ومن ذلك ما استدل به أبو القاسم القشيري(٣) من قصة ذي القرنين.

واستدل القشيري وغيره بقصة الخضر مع موسى عليه السلام، قالوا: ولم يكن نبيا، وقيل: كان نبيا رسولا، وقيل: كان وليا، وقيل: كان ملَكا(٤).

وقد أوضحتُ الخلاف فيه وشرحته في تهذيب الأسماء واللغات وفي شرح المهذب.

وفي ذلك: قصة أهل الكهف، وما اشتملت عليه من خوارق العادات. قال إمام الحرمين وغيره: ولم يكونوا أنبياء بالإجماع.

---

(١) خالف في ذلك الإمام ابن حزم في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) وزعم أنها نبية، لأن الملائكة خاطبتها بنص القرآن: ﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ * يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾ [آل عمران: ٤٢، ٤٣]. واستدل المخالفون بأن القرآن قال عن المسيح ﴿ **وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ** ﴾ [المائدة: ٧٥]. ولكن الصديقية لا تنافي النبوة، قال تعالى في إبراهيم وإدريس: ﴿ **إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا** ﴾ [مريم: ٤١، ٥٦]. المؤلف.

(٢) ولكن القرآن قال عن صاحب سليمان هذا: ﴿ **قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ** ﴾ [النمل: ٤٠]. فأشار إلى علة هذه القدرة العجيبة، وهي ما عنده من العلم، وبهذا يخرج عن خارق العادة.

(٣) راجع ٦٦٧ – ٦٧١ ج٢ الرسالة القشيرية.

(٤) يرجح الكثيرون: أن الخضر كان نبيا يوحى إليه، بدليل قوله في آخر القصة لموسى: ﴿ **وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي** ﴾ [الكهف: ٨٢].

وأما الأحاديث فكثيرة:

منها: حديث أنس: أن رجلين من أصحاب النبي ﷺ، خرجا من عند النبي ﷺ، في ليلة مظلمة، ومعهما مثل المصباحين، يضيئان بين أيديهما، فلما افترقا صار مع كل واحد منهما واحد حتى أهله. أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة، وفي علامات النبوة هذان الرجلان: عبّاد بن بشر، وأُسَيد بن حُضَير (بضم أولهما وفتح ثانيهما. وحضير بضم الحاء المهملة، وبالضاد المعجمة)(١).

ومنها: حديث أصحاب الغار الثلاثة، الذين أووا إلى الغار، فأطبقت صخرة عليهم بابه، فدعا كل واحد بدعوة فانفرجت عنهم الصخرة. وهو مخرج في صحيحي البخاري ومسلم(٢).

ومنها: حديث أبي هريرة -رضي الله تعالى عنه- في قصة جُرَيْج، أنه قال للصبي الرضيع: من أبوك؟ قال: فلان الراعي. وهو مخرج في الصحيح(٣).

ومنها: حديث أبي هريرة، قال النبي ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون، فإن يكن في أمتي أحد، فإنه عمر».

وفي رواية: «قد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء»(٤).

ومنها: الحديث المشهور في صحيح البخاري وغيره، في قصة خُبَيْب الأنصاري - بضم الخاء المعجمة - رضي الله تعالى عنه، صاحب رسول الله ﷺ. وقول بنت الحارث فيه: والله ما رأيت أسيرا قط خيرا من خُبَيْب، والله لقد وجدته يوما يأكل من قطف عنب في يده، وإنه لموثق في الحديد، وما بمكة ثمر! وكانت تقول: إنه لرزق الله، رزقه خبيبا(٥).

---

(١) رواه البخارى في الصلاة (٤٦٥) عن أنس بن مالك.

(٢) رواه البخارى في الأدب (٥٩٧٤) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٧٣٤) عن عبد الله ابن عمر.

(٣) رواه البخارى في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٦) ومسلم في البر والصلة (٢٥٥٠) عن أبي هريرة.

(٤) رواه البخارى في فضائل الصحابة (٣٦٨٩) عن أبي هريرة.

(٥) رواه البخارى في المغازي (٣٩٨٩) عن أبي هريرة.

والأحاديث والآثار وأقوال السلف والخلف في هذا الباب أكثر من أن تحصر، فيكتفى بما أشرنا إليه [1]. اهـ

شبهات منكري الكرامات:

هذا، وقد رأينا رجال المدرسة العقلية، المتمثلة في المعتزلة ومن سار على دربهم، ينكرون ثبوت الكرامات، ووقوعها لأولياء الله الصالحين، ويعتبرون القول بذلك من سذاجة المتدينين، وتصديقهم لأباطيل المخرّفين.

ونظرا لأن لهؤلاء المبالغين في تقديس العقل، فروخا وتلاميذ يعيشون بين ظهرانينا، ولهم ألسنة طويلة، تشنع على أهل الدين، سنذكر هنا شبهات المعتزلة وأمثالهم على ثبوت الكرامات للأولياء، وردود العلماء عليها.

وقد رأيت العلامة الشافعي تاج الدين السبكي (ت ٧٧١هـ) قد عني بهذه المسألة في كتابه الشهير (طبقات الشافعية الكبرى) وذلك عند ترجمته للفقيه الصوفي المشهور بالكرامات وخوارق العادات[2] أبي تراب النخشبي.

وقد تعرّض فيها لقول أبي تراب عن الكرامات، وأن السكون إليها نقص، وأنها قد تكون فتنة لمن سكن إليها، واغتر بها. كما أنه شدد على منكريها.

قال رحمه الله:

(إن الكرامات حق، وقول أبي تراب «من لا يؤمن بها فقد كفر» بالغ في الحط من منكريها، وقد تُؤوَّل لفظة الكفر في كلامه، وتُحمَل على أنه لم يعْنِ الكفر المخرج من الملة، ولكنه كفر دون كفر.

وإني لأعجب أشد العجب من منكرها، وأخشى عليه مقت الله، ويزداد تعجبي عند نسبه إنكارها إلى الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني، وهو من أساطين أهل السنة والجماعة! على أن نسبة إنكارها إليه على الإطلاق كَذِب عليه، والذي ذكره الرجل في مصنفاته: أن الكرامات لا تبلغ مبلغ خرق العادة.

قال: وكل ما جاز تقديره معجزة لنبي لا يجوز ظهور مثله كرامة لولي. قال: وإنما بالغ الكرامات: إجابة دعوة، أو موافاة ماء في بادية في غير موقع المياه، أو مضاهي ذلك، مما ينحط عن خرق العادة، ثم مع هذا قال إمام الحرمين وغيره من أئمتنا: هذا المذهب متروك.

---

(١) انظر: بستان العارفين للنووي. (٢) ترجمة رقم ٧٢ جـ٢ ص ٣٠٦ وما بعدها.

قلت: وليس بالغا في البشاعة مبلغ مذهب المنكرين للكرامات مطلقا، بل هو مذهب مفصل بين كرامة وكرامة، رأى أن ذلك التفصيل هو المميز لها من المعجزات.

وقد قال الأستاذ الكبير أبو القاسم القشيري في الرسالة [1]: «إن كثيرا من المقدورات يُعلم اليوم قطعا: أنه لا يجوز أن يظهر كرامة للأولياء، لضرورة أو شبه ضرورة، يعلم ذلك، فمنها حصول إنسان لا من أبوين، وقلب جماد بهيمةً أوحيوانا. وأمثال هذا يكثر. انتهى.

قال التاج السبكي:

(وهو حق لا ريب فيه، وبه يتضح أن قول من قال: ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي. ليس على عمومه، وأن قول من قال: لا فارق بين المعجزة والكرامة إلا التحدي. ليس على وجهه [2].

ونبدأها بالرد على شبهات المنكرين.

١ـ عدم اشتهار الكرامات في الصدر الأول:

قالوا: لو كان للكرامات أصل لكان أولى الناس بها أهل الصدر الأول، وهم صفوة الإسلام، وقادة الأنام، والمفضَّلون على الخليقة بعد الأنبياء عليهم السلام، ولم يُؤثر عنهم أمر مستقصى.

وهذا الذي ذكروه تعلل بالأماني، وهو قول مرذول مردود ، فلو حاول مستقصٍ استقصاء كرامات الصحابة - رضي الله عنهم - لأجهد نفسه، ولم يصل إلى عشر العشر، ولا بأس هنا بذكر يسير من كرامات الصحابة - رضي الله عنهم-، والكلام على السر في ظهورها، وإظهارها على وجه الاختصار، ليستفاد بكلامنا على ما نورده من القليل ما يستعان به على ما نغفله من الكثير.

فنقول: اعلم أولا أن كل كرامة ظهرت على يد صحابي أو وليّ، أو تظهر إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين، فإنها معجزة للنبي ﷺ، لأن صاحبها إنما نالها بالاقتداء به ﷺ، وهو متعرف له بأنه مقدم خليقة الله وصفوتهم، وسيد البشر الذي من بحره تستخرج الدرر، ومن غيثه يستنزل المطر، وهذا المعنى يصلح أن يكون سببا إجماليا عاما في الإظهار، لا سيما في عصر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، فإن الكفار

---

(١) جـ١ ص ٢٠٨ .

(٢) طبقات الشافعية للتاج السبكي بتحقيق عبد الفتاح الحلو: (٢ / ٣١٤) وما بعدها.

إذا رأوا ما يظهر على يديهم من الخوارق آمنوا بنبيهم ﷺ، وعلموا أنهم على الحق، فربما كان هذا سببا في الإظهار»[١].

وقد ذكر السبكي عددا من الكرامات لجمع من الصحابة رضي الله عنهم، منهم الخلفاء الراشدون وغيرهم. ينبغي أن تراجع.

٢- تجويز الكرامة يُفضي إلى السفسطة:

«وقالوا: تجويز الكرامة يفضي إلى السفسطة، لأنه يقتضي تجويز انقلاب الجبل ذهبا إبريزا، أو البحر دما عبيطا، وانقلاب أواني يتركها الإنسان في بيته أئمة فضلاء مدققين!

والجواب عند هذه الشبهة من وجوه:

أحدها: أنّا لا نسلم بلوغ الكرامة إلى هذا المبلغ، كما اقتضاه كلام القشيري.

والثاني: وهو ما اقتضاه كلام أئمتنا: أنّا نجوز بلوغها هذا المبلغ، ولكن لا يقتضي ذلك سفسطة؛ لأن ما ذكرتم بعينه وارد عليكم في زمان النبوة، فإنه يجوز ظهور المعجزة بذلك، ولا يؤدي إلى سفسطة.

والثالث: أن التجويزات العقلية لا تقدح في العلوم العادية، وجواز تغيُّرها بسبب الكرامة تجويز عقلي فلا يقدح فيها»[٢].

٣- خطر اشتباه الكرامة بالمعجزة:

«قالوا: لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة، فلا تبقى للمعجزة دلالة على ثبوت النبوة.

والجواب: منع الاشتباه، وهذا لأن المعجزة مقرونة بدعوى النبوة، ولا كذلك الكرامة، بل الكرامة مقرونة بالانقياد للنبي ﷺ وتصديقه، والسير على طريقه.

وقولهم: «إنما دلت المعجزة على تصديق النبي من حيث انخراق العادة، فكذلك الكرامة»: كلام ساقط؛ فإن مجرد خرْق العادة ليس المقتضي للنبوة، ولو دلّ خرق العادة على النبوة بمجرده، لوجب أن تدل أشراط الساعة وما سيظهر منها على ثبوت نبوة، إذ العوائد تنخرق بها. ومنْ أعظم البدائع: فطرة السماوات والنشأة الأولى، ثم

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٣٢١.

(٢) طبقات الشافعية: ٢/ ٣١٦.

لم تقتض بدائع الفطرة في نشأة الخلق ثبوت نبي، فاستبان أن مجرد خرق العادة لا يدل، إذ لو دل لاطرد، بل لا بد معه من التحدي، فلا اشتباه للكرامة بالمعجزة.

وأيضا فالمعجزة يجب على صاحبها الإشهار، بخلاف الكرامة، فإن مبناها على الإخفاء، ولا تظهر إلا على الندرة والخصوص، لا على الكثرة والعموم، وأيضا فالمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات، والكرامات تختص ببعضها، كما بيناه من كلام القشيري، وهو الصحيح. ولسنا نجوز ولدا إلا من أبوين، ولا نحو ذلك. كما سنستقصي القول فيه»(١).

٤- ادّعاء الكرامة قد يبطل الأحكام الشرعية:

«وقالوا: لو ظهرت لولي كرامة لجاز الحكم له بمجرد دعواه أنه يملك حبة من الحنطة، أو فلسا واحدا من الفلوس، من غير بيّنة، لظهور درجته عند الله تعالى المانعة من كذبه، لا سيما في هذا النزر اليسير، لكنه باطل؛ لإجماع المسلمين المؤيد بقول رسول رب العالمين ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين: «البينة على المدعي، واليمين على من أنكر»(٢).

والجواب: أن الكرامة لا توجب عصمة الولي، ولا صدقه في كل الأمور، قد سئل شيخ الطريقة، ومقتدى الحقيقة، أبو القاسم الجنيد رحمه الله: أيزني الولي؟ فقال: «﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨]. وهب أن الظن حاصل بصدقه فيما ادعاه، إلا أن الشارع جعل لثبوت الدعوى طريقا مخصوصا، وضابطا معروفا، لا يجوز تعديه، ولا العدول عنه، ألا ترى أن كثيرا من الظنون لا يجوز الحكم بها، لخروجها عن الضوابط الشرعية»(٣).

٥- تكرار الكرامات للأولياء يؤثّر في صحة معجزات الأنبياء:

وحاصل شبهتهم هذه -كما ذكرها السبكي- قد حرروا عنها عبارة فقالوا: إذا

---

(١) المصدر السابق: ٢/ ٣١٧.

(٢) رواه البيهقي في سننه (١٠/ ٢٥٢) وحسّنه ابن حجر في الفتح (٥/ ٢٨٣)، وأصل الحديث في الصحيحين: «لو يعطى الناس بدعواهم، لادّعى ناس دماء رجال وأموالهم، ولكن اليمين على المدعى عليه». رواه البخاري في التفسير (٤٥٥٢) ومسلم في الأقضية (١٧١١) عن ابن عباس.

(٣) طبقات الشافعية: ٢/ ٣١٧.

تكرر ما يخرق العوائد على الأولياء: أفضى ذلكَ إلى التحاق خوارق العادات في حقوقهم بالمعتادات، وصارت عاداتهم خلاف العادات، فلو ظهر نبيٌّ في زمنهم كانت عوائدهم في انخراق العوائد في أحوالهم تصُدهم عن تصحيح النظر في المعجزة.

ثم أخرجوا الشبهة على وجه آخر فقالوا: لو جاز إظهارها على صالح لجاز إظهارها على صالح آخر إكراما له، وهكذا إلى عدد كثير، إذ ليس اختصاص عدد منهم بذلك أولى من عدد آخر، وحينئذ يصير عادة، فلا يبقى ظهورها دليلا على النبوة، ويُطوى بساط النبوة رأسا.

وجميع ما ذكروه في هذه الشبهة تمويه، لا حاصل تحته، وقعقعة لا طائل فيها. ولأئمتنا في ردِّها وجهان:

فمن أئمتنا من منع توالي الكرامات واستمرارها حتى تصير في حكم العوائد، وخلص من هذا المنع عن إلزامهم، بل امتنع بعض المحققين من تصور توالي المعجزات على الرسل المتعاقبين، إذ كان يؤدي إلى أن تصير المعجزات معتادة. فهذه طريقة في الردَ على هذه الشبهة، حاصلها:

أنّا إنما نجوز ظهور الكرامات على وجه لا يصير عادة، فاستبان أنه خاصٌّ بشبهتهم هذه، وأنها لم تقدح في أصل الكرامات، وإنما تضمنت منع كُرورها، والتحاقها بالمعتاد.

ومن أئمتنا – وهم المُعْظَم– من جوّز توالي الكرامات على وجه الاختفاء، بحيث لا تظهر ولا تشيع ولا تلحق بالمعتاد؛ لئلا تخرج الكرامة عن كونها كرامة عند عامة الخلق. ثم قالوا: الكرامة وإن توالت على الوليّ حتى ألفها واعتادها، فلا يخرجه ذلك عن طريق الرشاد، ووجه السداد في النظر إذا لاحت المعجزة، إن وافقه التوفيق. وإن تعدّاه التوفيق سُلب الطريق، ولم يكن بوليّ على التحقيق، والمعجزة تتميز عمن تكررت عليه الكرامة بالإظهار والإشاعة والتحدي ودعوى النبوة؛ فإذا تميزت الكرامة عن المعجزة لم ينسد باب الطريق إلى معرفة النبي.

ومن تمام الكلام في ذلك: أن أهل القبلة متفقون على أن الكرامات لا تظهر على الفسقة الفجرة، وإنما تظهر على المتمسكين بطاعة الله عز وجل.

وبهذا لاح أن الطريق إلى معرفة الأنبياء لا ينسد، فإن الوليّ بتوفيق الله تعالى

ينقاد للنبي إذا ظهرت المعجزة على يديه، ويقول: معاشرَ الناس، هذا نبي الله فأطيعوه. ويكون أول منقاد له، ومؤمن به.

والقاضي أبو بكر، وإن شبب بمنع هذا الإجماع وقال: لو جوَّز مجوِّز ظهور بعض خوارق العادات على بعض الفسقة استدراجا لكان مذهبا، كما أنه لا يبعد ظهورها على الرهبان المتبتلين، وأصحاب الصوامع على كُفرهم. فهذا كما قال إمام الحرمين فيه نظر، ولسنا نثبت لراهب كرامة... ومحل استيفاء القول على ذلك لا يحتمله هذا المكان.

والحاصل: أن ما يظهر على يد الرهبان ليس من الكرامات، وأما توقف القاضي في الفسقة والفجرة، فأنا معه، لكن لا على الإطلاق، بل أفصِّل فأقول: لو ذهب ذاهب إلى تجويز ظهور الكرامة على يد الفاسق إنقاذا له مما هو فيه، ثم يتوب بعدها، وثبت لا محالة، وينتقل إلى الهدى بعد الضلالة، لكان مذهبا. يقرُب منه قصة أصحاب الكهف التي سنحكيها، فقد كانوا عبدة أصنام، ثم حصل لهم ما حصل(١)؛ إرشادا وتبصرة، ثم ما ذكره الخصوم من حديث اشتباه النبي بغيره إذا وافقت المعجزة الكرامة قد تبين الانفصال عنه.

وأنا أقول: (معاذ الله أن يتحدى نبي بكرامة تكررت على يد وليّ! بل لا بد أن يأتي النبي بما لا يوقعه الله على يد الولي، وإن جاز وقوعه، فليس كل جائز في قضايا العقول واقعا. ولما كانت مرتبة النبي أعلى وأرفع من مرتبة الوليّ، كان الوليّ ممنوعا مما يأتي به النبي على وجه الإعجاز والتحدي؛ أدبا مع النبي.

(ثم أقول: حديث الاشتباه والانسداد على بطلانه، إنما يقع البحث فيه حيث لم تختم النبوة، أما مع مجيء خاتم النبيين الذي ثبتت نبوته بأوضح البراهين، وإخباره بأنه لا نبي بعده، فقد أمنا الاشتباه، فلو صحّ ما ذكر من الاشتباه والانسداد لكان في حكم الأولياء من الأمم السالفة، لا في حكم الأولياء من هذه الأمة، لأَمْنهم من أنه لا نبي بعد نبيهم ﷺ، هذا لو صح، ولن يصح أبدا»(٢).

---

(١) إنما حصل لهم ما حصل من كرامات بعد إيمانهم ﴿**نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى**﴾ الآيات من سورة الكهف.

(٢) طبقات الشافعية: (٢/ ٣١٨-٣٢١).

تنبيه على حقائق مهمة:

وأجد من الضروري هنا التنبيه على جملة حقائق في موضوع الكرامات والخوارق بصفة عامة، يجب تذكرها ورعايتها:

١ـ الأصل في السنن الثبات والاطراد:

الحقيقة الأولى: أن الأصل في السنن الكونية الثبات والاطراد؛ إذ لولا ثباتها واطرادها ما عمرت الأرض، ولا تقدم العلم، ولا استطاع الإنسان أن يقوم بمهمة الخلافة الموكولة إليه. فكيف يستطيع أن يزرع أرضا يخشى أن ينقلب ترابها غدا ذهبا، أو يسقيها بماء يمكن أن يستحيل أمامه إلى نار محرقة... ألخ.

وإنما يخرق الله هذه السنن المعتادة، لحكم وأسباب، لا جزافا واعتباطا. من ذلك أن تكون تصديقا لأنبيائه عند دعواهم النبوة، ومعارضة أقوامهم لهم، ومطالبتهم بما يثبت صدق دعواهم، فتأتي الخارقة المعجزة على يد النبي، تأييدا وتصديقا عمليا، بمنزلة قول الله سبحانه «صدق عبدي فيما يبلغ عني» وهذا كناقة صالح، وعصا موسى وغيرهما.

وقد تظهر الخارقة على يد النبي تأكيدا لصدقه، ونصرا من الله له على عدوه، وتثبيتا للذين آمنوا معه، كما في انفلاق البحر لموسى، ونزول الملائكة على محمد وأصحابه في بدر والخندق وحنين.

ومثل ذلك تكثير الطعام القليل[١] للنبي ﷺ، حتى يشبع العدد الكبير في بعض الغزوات، وإفاضة الماء من بين أصابعه[٢] ﷺ حتى يرتوي الجم الغفير، ونحو ذلك، وذلك عندما احتاجوا إلى الماء ليشربوا، والطعام ليأكلوا.

ومن ذلك أن تقع الخارقة إرهاصا وتمهيدا لمقدم نبيّ؛ لتتهيأ الأذهان والنفوس لاستقبال دعوته، والإيمان برسالته. وذلك مثل حادثة أصحاب الفيل عام مولد النبي ﷺ ونحوها.

---

(١) معجزة تكثير الطعام للنبي ﷺ تعددت، منها ما كان في السفر، ومنها ما كان في الحضر، وقد جاء بعضها في الصحيحين، كما في قصة جابر بن عبد الله، وقد رواها البخاري في المغازي (٤١٠٢) ومسلم في الأشربة (٢٠٣٩) عن جابر. وكان عددهم ألف رجل.

(٢) قصة نبع الماء من بين أصابعه ﷺ عند البخاري في الأشربة (٥٦٣٩) عن جابر وكانوا (١٤٠٠) رجل.

ومنها كلام عيسى في المهد صبيا.

وإن كان يضاف إلى الإرهاص هنا حكمة جليلة أخرى، هي تبرئة أمه العذراء، فنطقه في المهد كاف في قطع ألسنة السوء التي تتناول امرأة حملت بغير رجل، ومن استطاع أن ينطق الوليد في مهده بكلام فصيح مبين: قادر على أن يهب المرأة جنينا بغير نطفة من رجل.

ومن ذلك: أن يكون الناس في أزمة وشدَّة، فيدعو العبد الصالح ربه، فيستجيب الله دعاءه، فيكشف عن عباده الشدة بأمر خارق لم يخطر لهم على بال، وربما يجري الله الخارق على يديه بدون دعاء، فإن قلبه مع الله، وإن لم يتكلم لسانه.

وهذا كما جاء عن عمر رضي الله عنه، في قصة «يا سارية الجبل»(١). إذ انكشف له الخطر على سارية وجيشه من ناحية الجبل، وهو بعيد جدا عنه، فناداه من فوق المنبر، فبلغه الصوت وسمعه.

وكما وقع للثلاثة أصحاب الغار الذين أطبقت عليهم الصخرة، فدعوا الله وتوسلوا إليه بصالح أعمالهم، فانفرجت عنهم الصخرة.

ومنها ما ذكر في كتب التصوف: أن جماعة ركبوا سفينة، فعصفت بهم الريح، وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم، فصدح الناس بالدعاء إلى الله، والاستغاثة بالله، وإذا رجل معهم مستغرق في ذكر الله، كأنه لا يبالي بما يقع، فقالوا له: ادع الله أن يفرج عنا ما نحن فيه، فرفع يديه إلى السماء، وقال: اللهم كما أريتنا بطشك وقوتك، فأرنا عفوك ورحمتك، يا أرحم الراحمين! فما كاد يتم كلماته حتى هدأت الرياح، وتغير الجو، وسارت السفينة بأمان.

يذكر ابن السبكي في طبقات الشافعية: أن الفرنج (الصليبيين) حين وصلوا إلى المنصورة واستظهروا على المسلمين، وخرج إليهم عسكر مصر، كان الشيخ عز الدين ابن عبد السلام مع العسكر، فهبّت ريح قوية، فلما رأى الشيخ حال المسلمين، نادى بأعلى صوته مشيرا إلى الريح: يا ريح خذيهم، يا ريح خذيهم، يا ريح خذيهم! فعادت الريح على مراكب الفرنج فحطمتها، وكان الفتح من الله، وغرق أكثر الفرنج. وقال من قال من المسلين: الحمد لله الذي أرانا من أمة محمد ﷺ رجلا سخر له الريح!(٢).

(١) قصة سارية ذكرها اللالكاني في كتابه كرامات الأولياء ص ١٢٠.
(٢) طبقات الشافعية ج٥ ص ٨٤.

ومن ذلك: أن يكون الولي الصالح نفسه في كربة وغمة، فيكرمه الله، ويفرج عنه كربته بغير ما هو معتاد من الطرائق والسنن، كما في قصة جُرَيْج في[1] صحيح مسلم، التي أشار إليها النووي فيما نقلناه عنه.

ومن ذلك: أن يكثر الإنكار من فرد أو جماعة للغيبيات والخوارق، فيجري الله منها على أيدي الصالحين: ما يفحم المكابرين، ويسدّ أفواه المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق.

٢ـ الخوارق الكبار لا تقع لغير الأنبياء:

الحقيقة الثانية: أن هناك خوارق كبارا لم تقع لغير الأنبياء، مثل: قلب الجماد حيوانا، كما في قلب العصا حيّة تسعى، والنفخ في الطين المصور فيكون طيرا، ومثل انفلاق البحر فرقتين بضربة عصا، حتى يكون كل فرق كالطود العظيم، ومثل إحياء الموتى، وحمل المرأة من غير نطفة الرجل.

فهذه – وإن كانت ممكنة، وفي سلطان القدرة الإلهية– لم تقع لغير نبيّ مرسل.

وهنا يبرز سؤال ينبغي الإجابة عنه وهو:

هل يجوز إثبات أي خارق للوليّ على سبيل الكرامة، مهما تكن طبيعة هذا الخارق ودرجته ومداه؟

أجاب بعض العلماء من أهل السنة بالإيجاب في الجملة لا في التفضيل، ومن ذلك قول إمام الحرمين:

المرضيّ عندنا تجويز جملة خوارق العادات في معرض الكرامات.

وسئل النسفيّ عما يحكى: أن الكعبة كانت تزور واحدا من الأولياء: هل يجوز القول به؟ فقال: نقض العادة على سبيل الكرامة لأهل الولاية، جائز عند أهل السنة.

واشترط السعد التفتازاني في إثبات الخارق للولي: ألا يرد نصّ قاطع على أن أحدا لا يأتي بمثله أصلا كالقرآن.

لكن من العلماء من خالف ذلك، ومنع التوسع في إثبات الخوارق والكرامات بلا قيد ولا شرط.

ومن ذلك ما ذكر – في (البزّازية) من كتب الحنفية قال:

---

(١) سبق تخريجه.

وقد ذكر علماؤنا: أن ما هو من المعجزات الكبار، كإحياء الموتى، وقلب العصا حية، وانشقاق القمر، وإشباع الجمع (الكثير) من الطعام (القليل)، وخروج الماء من بين الأصابع. لا يمكن إجراؤه كرامة للولي.

وجعلوا من هذا النوع، طيّ المسافات للولي، كما حدث للنبي ﷺ في ليلة الإسراء، واستدلّوا أن هذا مما اختص الله به رسله بما قاله النبي ﷺ: «زويت لي الأرض..»[1] الحديث. فلو جاز لغيره لم يبق فائدة للتخصيص.

بل ذهب بعض العلماء إلى أن من جوّز وقوع هذا للوليّ يكفر، كما حكى ذلك في شرح تنوير الأبصار، حيث قال شعرا:

ومن لولي قال: طيّ مسافة يجوز - جهول، ثم بعض يكفّر[2]

وكذلك جاء عن الأستاذ أبي إسحق الاسفراييني، التحديد من نطاق الكرامات، وتضييق دائرتها، مما جعل بعضهم ينسب إليه إنكارها رأسا، مع أنه من أساطين أهل السنة والجماعة.

وقد قال العلامة تاج الدين السبكي في طبقات الشافعية فيما نقلناه من قبل:

(على أن نسبة إنكارها إليه على الإطلاق كَذِب عليه، والذي ذكره الرجل في مصنفاته: أن الكرامات لا تبلغ مبلغ خرق العادة. قال: وكل ما جاز تقديره معجزة لنبيّ، لا يجوز ظهور مثله كرامة لوليّ.

قال: وإنما بالغ الكرامات إجابة دعوة، أو موافاة ماء في بادية في غير موقع المياه، أو مضاهي ذلك، مما ينحط عن خرق العادة، ثم مع هذا قال إمام الحرمين وغيره من أئمتنا: هذا المذهب متروك.

قلت: وليس بالغا في البشاعة مبلغ مذهب المنكرين للكرامات مطلقا، بل هو مذهب مفصّل بين كرامة وكرامة، رأى أن ذلك التفصيل هو المميّز لها من المعجزات.

وقد قال الأستاذ الكبير أبو القاسم القشيري في الرسالة:

(إن كثيرا من المقدورات يُعلم اليوم قطعا أنه لا يجوز أن يظهر كرامة للأولياء،

---

(١) إشارة إلي حديث ثوبان وهو عند ابن ماجة في الفتن (٣٩٥٢) وذكره الألباني في الصحيحة (٣١٩٢).

(٢) انظر: الدر المختار وحاشيته: رد المحتار (حاشية ابن عابدين) ج٣/ ٢٤٥،٢٤٦.

لضرورة أو شبه ضرورة يعلم ذلك، فمنها حصول إنسان لا من أبوين، وقلب جماد بهيمة أو حيوانا، وأمثال هذا كثير. انتهى.

وهو حق لا ريب فيه، وبه يتضح أن قَوْل من قال: ما جاز أن يكون معجزة لنبيّ جاز أن يكون كرامة لولي: ليس على عمومه، وأن قول من قال: لا فارق بين المعجزة والكرامة إلا التحدي، ليس على وجهه»(١).

٣ـ ليس كل خارق للعادة كرامة:

الحقيقة الثالثة: أنه ليس كل أمر خارق ظهر على يدي إنسان، يكون كرامة له، وبرهانا على أنه وليّ لله.

فالخوارق أنواع شتى:

منها: ما يسميه العلماء «معجزة» وهو أمر خارق للعادة، يُظْهِرُه الله على يد مدعي النبوة، مقرونا بالتحدي، تصديقا له في دعواه.

ومنها: ما يسمى «إهانة» وهو أمر خارق للعادة يُظْهِره الله على يد مدعي النبوة، تكذيبا له في دعواه، كمن يتفل في عين الأعور لتشفى، فتعمى الصحيحة.

ومنها: ما يسمى «استدراجا» وهو أمر خارق للعادة، يظهره الله علي يد عبد فاجر ظاهر الفجور، مكرا من الله به، واستدراجا له، ابتلاء لإيمان الناس. كما قال تعالى: ﴿**سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم إنَّ كيدي متين**﴾ [القلم: ٤٤، ٤٥]. من ذلك ما يظهره الله على يد مدعي الألوهية، كالمسيح الدجال، فادعاؤه الألوهية يحمل في ذاته دليل كذبه. فما يظهر على يده من خوارق ـ إن صحت ـ من باب الاستدراج.

ومنها: ما يسمى «إعانة» وهو أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد مستور الحال إعانة من الله له.

ومنها: ما يسمى «كرامة» وهو أمر خارق للعادة يظهره الله علي يد عبد ظاهر الصلاح والتقوى، تكريما من الله له، وهذا هو موضوع حديثنا.

٤ـ ليس كل مخالف للمعتاد خارقا:

الحقيقة الرابعة: أنه ليس كل ما يشاع بين الناس أنه من الخوارق يكون خارقا في الواقع.

---

(١) انظر: طبقات الشافعية للسبكي بتحقيق الحلو (٢/ ٣١٥، ٣١٦).

فهناك أمور معتادة لمن عرف طرائقها، وتعلمها من أهلها، وإن ظن عوام الناس أنها من خوارق العادات.

هناك العجائب التي تصدر عن أرباب الرياضة الروحية، التي يمارسها أناس ذوو استعدادات خاصة من شتّى الملل والنحل، فتنكشف لهم أمور لا تنكشف لغيرهم، ويقدرون على أعمال لا يقدر عليها سواهم، بطول معاناتهم لهذا اللون من مجاهدة الأنفس، وطول الصيام والصمت والخلوة والتأمل والتركيز. فمن تعنّى تعنيهم، وسلك سبيلهم، وكان لديه الاستعداد، يُسِّر له ما يُسِّر لهم، من الأمور التي يظنها العامة خوارق وكرامات، وما هي بالكرامات ولا الخوارق، إلا لمن جهل طريقها.

وحسب المسلم أن يرى فقراء الهندوس والبوذيين وغيرهم من كهنة الوثنيين، وكذلك رهبان النصارى، يمارسون هذه الرياضة، فلا تبخل عليهم بآثارها من المكاشفات وما شابهها.

وهناك ظاهرة التنويم المغناطيسي، وكيف شاهد الناس من آثارها أمورا عجيبة، حتى وجدوا الوسيط - المنوَّم - يستطيع أن يكشف عن بعض الأشياء المخبأة ونحو ذلك[1].

وهناك الفراسة الفطرية التي تكون موهبة عند بعض الناس، بحيث يستدل بهيئة الإنسان وكلامه وصورته الظاهرة، على أخلاقه واتجاهاته وأحواله الباطنة. على نحو ما قال الشاعر:

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهد الخبر

وقال بعضهم: إذا نظرتُ إلى قفا إنسان تصورت طباعه وأخلاقه. قيل له: فإذا نظرت إلى وجهه؟ قال: ذاك كتاب أقرأه!

وهناك ما يفعله السحرة من العجائب، التي تسحر أعين الناس، وتسترهب الجماهير، وهم بسحرهم يُفرِّقون بين المرء وزوجه. هذا مع أن السحر من قديم علم أو فن يمكن تعلمه، وقد كان شائعا لدى بعض الأمم كالمصريين وغيرهم، كما قصّ علينا القرآن الكريم، وقال القرآن في علم السحر: ﴿ **وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ** ﴾ [البقرة: ١٠٢].

---

(١) انظر ما ذكره الأستاذ عبد العظيم الزرقاني في كتابه «مناهل العرفان».

وهناك الشعبذة وخفة اليد، واستعمال الحيل، واستخدام ما يجهله العامة من الطرق العلمية المقررة في الكيمياء وغيرها.

وهناك الحيلة والخداع والاستغفال الذي يمارسه بعض الدجالين لمعرفة أسرار الناس بواسطة الأتباع والمأجورين لكشف ما عند البسطاء والمغفلين، يظهرها بعض الأدعياء، وكأنها كرامة للدجال الذي يزعم أو يُزعَم له أنه يعرف الأسرار، ويعلم الخفيات، ويتنبأ بما يكنه ضمير الغيب. وهذا شأن العرافين والكهنة والرمّالين وغيرهم من الدجاجلة المحترفين.

وهناك الإيحاء الذي أثبتت الدراسات النفسية قوة تأثيره على العقل والنفس والبدن، وخاصة على العقل الجمعي، عقل الجماهير التي تصدق ساعة اجتماعها من الأباطيل ما لا يصدقه الواحد منفردا.

كما شاع في القاهرة في فترة من الفترات: أن صورة السيدة مريم العذراء رضي الله عنها: تظهر فوق برج إحدى الكنائس في الزيتون، وأن بعض الناس رأوها واضحة جلية، وشاع هذا الخبر لدى العوام وصدقوه، واجتمع الآلاف من الناس عند هذه الكنيسة ليلا، ينتظرون أن تطل عليهم السيدة مريم، فلم يجدوا شيئا! وإن كان معظم هؤلاء مسلمين. ومنهم من أوهم نفسه أنه رأى شيئا، والحق أن الناس أتعبوا أنفسهم في غير طائل.

فكل هذه الأمور وما شابهها، ليس من الخوارق في شيء، إنما هي إيهام وتلبيس وتمويه على الجماهير السطحية، التي تتبع كل ناعق، وتميل مع كل ريح.

٥ - ليس كل ما ينقل من الكرامات صحيحا:

الحقيقة الخامسة، وهي: أنه ليس كل ما ينقل من الكرامات يكون صحيحا، وذلك: أن أمر إسناد الكرامات إلى الأولياء -سواء كانوا أولياء حقيقيين، أم أولياء مزعومين - من الأمور القابلة للتزيد والمبالغة، وجعل الحبة قبة، والقط جملا، كما يقولون، بل إني لا أعدو الحق إذا قلت: إن هذا الأمر قابل للكذب والاختلاق، من بعض الذين دخلوا ميدان التصوف زورا، ولبسوا لبوس الصالحين، وليسوا منهم، ارتزاقا من وراء الطريق، أو كسبا للشهرة أو المال، وخداعا للعوام الذين تروج عندهم السلع المغشوشة، وينفق في سوقهم الكلام المعسول، والمظهر الطيب، من العمامة الخضراء أوالسوداء، ومن اللحية الطويلة، وربما الثياب المرقعة، فلا عجب أن يسوق

هؤلاء الأباطيل عن أنفسهم، وعمن ينتسبون إليه من المشايخ، ولا أحد يسائلهم، أو يناقشهم، أو يمتحن ما يقولون.

وحتى العوام عندهم قصص وحكايات من أكاذيب هؤلاء الدجاجلة التي يذيعونها بواسطة أتباعهم الموالين لهم، والناطقين باسمهم، والذين يعتبرون أبواقا لهم، وسرعان ما يكتشف الناس إفكهم وبهتانهم.

وحتى بعض المتدينين حقيقة من هؤلاء - لعدم فهمهم - لا يتورعون من الكذب في هذا المجال، لتوهمهم أن هذا يرغِّب الناس في حب الصالحين، والاقتداء بهم، والسير على طريقهم، ومعاذ الله أن يحتاج الحق إلى أن يؤيد بالباطل.

٦- ليس كل ما ورد في الكتب مقبولا:

والحقيقة السادسة: أنه إذا كان العوام الجهال، قد يقعون في التزيد والمبالغة في إثبات الكرامات، بل ربما سقطوا في الكذب الصراح في إسناد وقائع وخوارق لأناس لم تقع إلا في خيالاتهم، أو على ألسنتهم، فإن أعجب من هذا: أن تروج مثل الغرائب والعجائب عند بعض العلماء، ويتناقلوها في كتبهم، ويتباهوا بها، بوصفها كرامات لأولياء، وكثير منها فضائح أو جرائم لا يجوز تسطيرها في الكتب، ولا سيما الكتب التي تنسب إلى دين الإسلام. الذي نوه بـ ﴿**أُولِي الْأَلْبَابِ**﴾ و﴿**أُولِي النُّهَىٰ**﴾ وكان كتابه ﴿**آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ و﴿ **لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ واعتبر التفكر فيه عبادة وفريضة، وحمل على التقليد والجمود حملة شعواء، كما حمل على الظنون والأهواء في تأسيس الحقائق، وتكوين العقائد، ﴿**إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ .....**﴾.

من ذلك ما نقله الشيخ الشعراني من المتأخرين في (طبقاته الكبرى) مما يسميه كرامات لمن ذكرهم من الأولياء في نظره، وبعضها لا يليق ذكره، ولا ينفع نقله، ولو فرض وقوعه، لأنه لا يستفيد منه الناس في دين ولا دنيا.

رشيد رضا يطارد خرافات غلاة المتصوفة:

وقد ضاق العلامة رشيد رضا ذرعا بما سجله الشعراني في كتابه، وتعقب بعضه في تفسيره بمنطق قوي، معتمد على صحيح المنقول وصريح المعقول.

قال رحمه الله في تفسير آية سورة يونس في شأن أولياء الله:

(أمرر بصرك على طبقات الشعراني الكبرى، فإنك لا ترى فيها (يعني: في

القرون الأولى) فرقا كبيرا بين سيرة أئمة الحديث والفقه، وأئمة التصوف: في العبادة والتقوى والعلم والحكمة، ثم انظر في سيرة من بعدهم من صوفية القرون الوسطى، ثم قرن المؤلف - وهو العاشر - وتأمل ووازن: تر في أولياء الشعراني: المجانين والمجّان والقذرين ـ الذين تناثرت الحشرات من رؤوسهم ولحاهم وثيابهم التي لا يغسلونها حتى تبلى، أو في السنة مرة واحدة ـ تجد ذلك البون الشاسع فيهم، وهم مع ذلك يفضلون أنفسهم على الأنبياء، ومنهم من يدعي الاتحاد بالله أو الألوهية!

تأمل ما كتبه في ترجمة الذين يسمونهم (الأقطاب الأربعة)، فإنك لا تجد فيه لأحد منهم: أنه كان ينفع الناس بعلوم الشرع، إلا الشيخ عبد القادر الجيلاني، وتجد أن الشيخ أحمد الرفاعي كان يوبخه علماء عصره، ويخاطبونه بلقب (الدجال) ويرمونه بالجمع بين النساء والرجال.

وأما الدسوقي، فكتب عنه: أنه كان يتكلم بالعجمي والسرياني والعبراني والزنجي، وسائر لغات الطيور والوحوش، ونقل عنه كتابا من هذه اللغات، أرسله إلى أحد مريديه، وهو خلط مخترع ليس منها في شيء، وسلاما مثله أرسله مع أحد الحجاج إلى رسول الله ﷺ منه قوله: « موز الرموز، عموز النهوز، سلاحات أفق، فرد نانية أمق، شوامق اليرامق، حيد وفرقيد، وفرغاط الأسباط » .. إلخ، فما معنى هذا؟ وأي فائدة للناس فيه؟

ونقل عنه كلاما من المعهود من أمثاله من الصوفية، منه النافع والضار، فمن الحق النافع ما معناه: أنه لو لم تغلب عليهم الأحوال لما قالوا في التفسير إلا الصحيح المأثور. ومن الضار الذي أفسد على المصدقين بولاية هؤلاء الناس دينهم، وهو مما نحن فيه: قوله: وكان رضي الله عنه يقول: أنا موسى عليه السلام في مناجاته، أنا علي رضي الله عنه في حملاته، أنا كل وليّ في الأرض، خلقته بيدي، ألبس منهم من شئت! أنا في السماء شاهدت ربي، وعلى الكرسي خاطبته! أنا بيدي أبواب النار غلقتها. وبيدي جنة الفردوس فتحتها!! من زارني أسكنته جنة الفردوس » إلخ... وقوله وهو في تفسير الآية:

(واعلم يا ولدي أن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون: متصلون بالله، وما كان ولي متصل بالله إلا وهو يناجي ربه، كما كان موسى عليه السلام

يناجي ربه، وما من وليّ إلا وهو يحمل على الكفار كما كان علي رضي الله عنه يحمل، وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخا في الأزل، بين يدي قديم الأزل، وبين يدي رسول الله ﷺ، وأن الله عز وجل خلقني من نور رسول الله ﷺ، وأمرني أن أخلع على جميع الأولياء بيدي، فخلعت عليهم بيدي، وقال لي رسول الله ﷺ : يا إبراهيم أنت نقيب عليهم! فكنت أنا ورسول الله ﷺ، وأخي عبد القادر خلفي، وابن الرفاعي خلف عبد القادر، ثم التفت إليّ رسول الله ﷺ وقال لي: «يا إبراهيم سر إلى مالك وقل له: يغلق النيران، وسر إلى رضوان وقل له: يفتح الجنان، ففعل مالك ما أمر به، ورضوان ما أمر به!!» إلخ. وله ما هو أغرب منه.

وذكر الشعراني أنه أطال في هذا الكلام، وهو من (مقام الاستطالة) تعطي الرتبة صاحبها أن ينطق بما ينطق به، وقد سبقه إلى نحو ذلك الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه وغيره، فلا ينبغي مخالفته إلا بنص صريح) اهـ.

قال الشيخ رشيد:

ونقول: إن مثبت هذه الدعاوي المنكرة في عالم الغيب من شؤون رب العالمين وملائكته، وأكرم رسله، وجنته وناره، هو الذي يحتاج في إثباتها إلى النص الصريح دون منكره، فإنه يتبع الأصل والإجماع على أن شيئا من ذلك لا يثبت إلا بنص قطعي، وسنذكر ما انتهت إليه هذه الدعاوى في إفساد الدين وإضلال الملايين من المسلمين.

جاء في كتب الرفاعية: أن الشيخ أحمد الرفاعي مس بيده سمكة، فأرادوا شيّها بالنار، فلم تؤثر فيها النار، فذكروا له ذلك فقال: وعدني العزيز أن كل ما لمسته يد هذا اللاش حُمَيْد لا تحرقه النار في الدنيا ولا في الآخرة! وجاء فيها: أن سيدي أحمد الرفاعي كان يُمِيت ويُحْيي، ويُسْعِد ويُشْقي، ويُفْقر ويُغْني، وأنه وصل إلى مقام صارت السماوات السبع في رجله كالخلخال!!!

وفي (البهجة الرفاعية): أن سيدهم أحمد الرفاعي باع بستانا في الجنة لبعض الناس!! وذكر له حدودا أربعة، وقد نقلت هذا وما قبله في كتابي (الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية).

وجاء في بعض كتب مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني: أنه مات بعض

مريديه، فشكت إليه أمه وبكت، فرقَّ لها، فطار وراء ملك الموت في المساء، وهو صاعد إلى السماء، يحمل في زنبيل ما قبض من الأرواح في ذلك اليوم، فطلب منه أن يعطيه روح مريده أو أن يردها إليه، فامتنع، فجذب الزنبيل منه فأفلت فسقط جميع من كان فيه من الأرواح فذهبت كل روح إلى جسدها! فصعد ملك الموت إلى ربه، وشكا له ما فعله عبد القادر، فأجابه الرب سبحانه بما امتنعنا عن نقله. إذ نقلنا هذه الخرافة في الجزء الأول من المجلد التاسع من المنار تنويها وأدبا مع ربنا عز وجل.

ونقلنا ثم: أن خطيبا خطب المسلمين في الهند ذاكرا مناقب الشيخ عبد القادر فقال: إن حدأة خطفت قطعة لحم مما ذبح للشيخ عبد القادر في مولده ـ كما كانوا يذبحون للأصنام ـ فوقعت عظمتها في مقبرة، فغفر الله تعالى لجميع من دفن فيها كرامة للشيخ عبد القادر!!

ويا ويل من ينكر أمثال هذه الخرافات، فيستهدف لرميه بمخالفة قوله تعالى: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وإنكار الكرامات، وقول اللقاني:

وأثبتن للأوليا الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه

ومن هذه الكرامات بزعمهم: ادعاء الوحي، ولا ينافيها عندهم: معارضة القرآن وعبادة الشيطان، وعلم الغيب، وملك النفع والضر وتدبير الأمر، وترك الفرائض، وارتكاب الفواحش، لأنها لا تكون من أوليائهم إلا صورية لمصلحة، وكذا الكفر الصريح، كما ترى في الشواهد الآتية:

« الشاهد الأول: كرامات ولي شيطاني موحد ألوهية إبليس »:

قال الشعراني في ترجمة الشيخ محمد الخضري: « وكان من أصحاب جدي رضي الله عنهما » وكان يتكلم بالغرائب والعجائب من دقائق العلوم والمعارف ما دام صاحيا، فإذا قوي عليه الحال تكلم بألفاظ لا يطيق أحد سماعها في حق الأنبياء وغيرهم. وكان يُرى في كذا كذا بلدا في وقت واحد. وأخبرني الشيخ أبو الفضل السرسي: أنه جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة فقال: (بسم الله) فطلع المنبر فحمد الله وأثنى عليه ومجده ثم قال: وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام فقال الناس: كفر! فسل السيف، ونزل فهرب الناس كلهم من الجامع. فجلس على المنبر إلى أذان العصر، وما تجرأ أحد أن يدخل الجامع، ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة،

فأخبر أهل كل بلد أنه خطب عندهم وصلى بهم، قال: فعددنا له ذلك اليوم ثلاثين خطبة! هذا ونحن نراه جالسا عندنا في بلدنا!

«وأخبرني الشيخ أحمد القلعي: أن السلطان قايتباي كان إذا رآه قاصدا له تحوّل، ودخل البيت خوفا أن يبطش به بحضرة الناس. وكان إذا أمسك أحدا يمسكه من لحيته، ويصير يبصق على وجهه ويصفعه، حتى يبدو له إطلاقه، وكان لا يستطيع أكبر الناس أن يذهب حتى يفرغ من ضربه، وكان يقول: الأرض بين يدي كالإناء الذي آكل منه، وأجساد الخلائق كالقوارير، أرى ما في بواطنهم. توفي رضي الله عنه سنة سبع وتسعين وثمانمائة رضي الله عنه. اهـ. ص٩٤ الجزء الثاني من الطبقات.

قال الشيخ رشيد:

(أقول): لولا أن سلطان هؤلاء القوم مجنون بالخرافات مثلهم، لما كان لمثل هذا المجنون مأوى إلا البيمارستان، يكُف كفره وشره عنهم.

«الشاهد الثاني: كرامة وليّ العاهرات والزناة والفاعل بالأتان»:

قال في ترجمة من سماه (سيدي علي وحيش من مجاذيب النمارية):

(كان رضي الله عنه من أعيان المجاذيب أرباب الأحوال، وكان يأتي مصر والمحلة وغيرهما من البلاد، وله كرامات وخوارق، واجتمعت به يوما في خط بين القصرين، فقال لي: ودِّيني للزلباني، فودّيته له، فدعا لي، وقال: الله يصبرك على ما بين يديك من البلوى. وأخبرني الشيخ محمد الطنيخي رحمه الله تعالى قال: كان الشيخ وحيش رضي الله عنه يقيم عندنا في المحلة في خان بنات الخطا (أي العاهرات) وكان كل من خرج يقول: قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن تخرج، فيشفع فيه! وكان يحبس بعضهم اليوم واليومين، ولا يمكنه أن يخرج حتى يجاب في شفاعته! وقال يوما لبنات الخطا: أخرجوا؛ فإن الخان رائح يطبق عليكم، فما سمع منهن إلا واحدة فخرجت، ووقع الباقي فمتن كلهن!

وكان إذا رأى شيخ بلد أو غيره، ينزله من على الحمارة، ويقول له: أمسك رأسها حتى أفعل فيها!! فإن أبى شيخ البلد تسمر في الأرض لا يستطيع أن يمشي خطوة، وإن سمع حصل له خجل عظيم والناس يمرون عليه.. وكان له أحوال غريبة. وقد أخبرت عنه سيدي محمد بن عنان رضي الله عنه فقال: هؤلاء يخيلون للناس

هذه الأفعال وليس لها حقيقة" اهـ ص ٢١٩منه. وولاية هذا المجنون أنه قواد للعاهرات بضمانة المغفرة لمن يفجر بهن بشفاعته، وأضل منه علماء الخرافات المدعون لكرامته»[١].

ضرورة التقيد بهذه الضوابط والحدود:

إن الإيمان بوقوع الكرامات والخوارق بغير ضوابط ولا حدود. قد أفسد عقلية كثير من المسلمين، وجعلها مرتعا للأوهام، ووكرا للخرافات، حتى أصبحوا يصدقون كل دعوى يختلقها أفاك أثيم، وإن كانت ظاهرة البطلان.

لقد اخترع بعض الدجالين حكاية كاذبة مرفوضة من أساسها، أشرت إليها من قبل، وهي: ظهور السيدة مريم العذراء، فوق كنيسة في ضاحية الزيتون بالقاهرة، وتبنت بعض الصحف والأجهزة ترويج هذا الإفك، وتلقفه البسطاء والأغرار والسطحيون كأنه نبأ جاء به الوحي، وإذا عشرات الألوف من مسلمين ونصارى يذهبون إلى المكان المزعوم، ويشدّون إليه الرحال، ويقضون الليل إلى الفجر واقفين على أقدامهم، متحملين مشاق السفر والسهر وشدة الضغط والزحام، والتعرض للسرقة والفجور، من أجل انتظار طلعة العذراء!!

وفي هذه الزحمة المذهلة، لا غرو أن تجد أناسا يغمى عليهم، ويخرون ساقطين من الإعياء، بل مات بعض الضعفاء من الشيوخ وغيرهم تحت أقدام الجماهير الغافلة المسوقة ـ بسوط الإشاعات والأوهام ـ إلى المكان الموعود سوق القطعان![٢]

والعجيب أن القادة والساسة، يسكتون عن هذه الأباطيل، بل يشجعونها في الواقع، لأنها تلهي الجماهير عن المطالبة بحقوقها، والإحساس بالمآسي الكبيرة التي تعانيها أوطانها!!

وفي سنة ١٩٧٠م نقلت وكالات الأنباء إشاعة مؤداها أن امرأة في إندونيسيا، تحدث جنينها في بطنها، وقرأ القرآن الكريم.

---

(١) من تفسير المنار لرشيد رضا (١١/٤٢١-٤٢٥).

(٢) ظهرت خرافة العذراء هذه في مصر ثم في القدس بعد نكبة حزيران (يونيه) ١٩٦٧م.

ومعنى هذا أن هذه الخارقة، تفوق معجزة عيسى عليه السلام، فعيسى قد نطق في المهد صبيا، وهذا نطق في البطن جنينا، ولم يقتصر على مجرد النطق بلغة الأم، بل تجاوزه فقرأ القرآن العربي المبين.

وقد شغل هذا النبأ الناس في داخل إندونيسيا وخارجها أياما وأسابيع، ولا حديث لهم إلا الجنين المتكلم القارئ المرتل! تتناقل ذلك الصحف والإذاعات ووكالات الأنباء..

ثم... بعد فحص وتحقيق، تبين أن المرأة كذّابة محتالة، وأنها كانت تخفي في صدرها مسجلا صغيرا، سجلت عليه بعض الكلمات وآيات من القرآن، فهي تديره بمهارة حيث لا يشعر زوارها، واستطاعت بهذه الحيلة أن تثير كل هذه الضجة، وتخدع الملايين وعشرات الملايين مدة غير يسيرة من الزمان.

وإذا كانت هذه اكتشفت حيلتها، فهناك عشرات ومئات من حِيَل المحتالين الفَجَرة، وخِدَع المخادعين المهَرَة، لم تكتشف، وظل الناس يعتقدون في أصحابها الولاية والقربى، وهم أبعد الناس عن ولاية الله ﴿**إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأنفال: ٣٤].

الشيخ الغزالي يحمل على المبالغين في الخوارق:

لقد ضاق صدر الداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد الغزالي من كثرة ما قرأ وسمع من المبالغات في إثبات الكرامات، التي كادت تلغي سنن الله في الخلق، فطفح به الكيل، وأوسع العقلية التي تنقل هذا السيل من الخوارق نقدا لاذعا.

قال رحمه الله في كتابه (ركائز الإيمان بين العقل والقلب):

«ومما يؤخذ على المسلمين في الأعصار المتأخرة خلطهم بين عالم الغيب وعالم الشهادة. إن العالم الأول غامض الصورة، مُبهَم المعالم، لا نعرف من حقائقه إلا القليل الذي عرفنا به الشارع لحكمة قصد إليها.

أما العالم الذي نعيش فيه فهو واضح الصورة بين المعالم، لعناصره خصائص ثابتة، وللعلاقة بين بعضها والبعض الآخر قوانين محكمة..

غير أن بعض المتدينين يلبس هذا بذاك، فلا تتماسك في ذهنه صورة دقيقة

للحياة وسننها. بل تتحول المادة وصفاتها وقوانينها إلى سائل رجراج يتساوى فيه الممكن والمستحيل.

وما نقول في فقيه يفترض أن الميت غَسّل نفسه غُسْل الجنازة؟ وآخر يقود قافلة مشيعيه كيف يشاء؟

ولقد انتشر هذا اللغو في أعصار وأقطار شتى، فوقف تقدمها العلمي، ورسب في الأذهان أن حقائق الأشياء غير ثابتة، وأن قوانين الكون غير مضبوطة.

والغريب أن عددا من المؤلفين في فروع الثقافة الإسلامية أذنوا لهذا الباطل أن يشيع. ويستحيل أن ترقى أمة يسودها هذا الفكر المكذوب.

اقرأ هذه الأقوال المنسوبة إلى المتصوفين وانظر: هل يبقى بعد تصديقها مجال لارتقاء كوني، أو تقدم صناعي وكيميائي؟

زعم الخوّاص أنه كان يركب حماره، وكان يضربه، فرفع الحمار رأسه، وقال للخواص: اضرب، فإنك هو ذا تضرب على رأسك!

وزعم غيره أن حية سقطت على الجيلاني وهو يدرس، ثم قامت بين يديه تكلمه بكلام لا يفهمه سواه! وأن تمساحا ابتلع صبيا، فناداه الدسوقي، فخرج يمشي من البحر، ووضع الطفل بين يدي الشيخ! وزعم القشيري أن بعض شجر الرمان خاطب إبراهيم بن أدهم، ورجاه أن يأكل من ثمره فلم يفعل ابن أدهم، فكرر شجر الرمان رجاءه ثلاث مرات، ثم توسل إلى رفيق ابن أدهم أن يشفع في هذا الأمر، فتناول إبراهيم رمانتين!!

وأن صوفيا ركز رمحه في الأرض، فجاء طير ووقف عليه، وأخبره عن سرية كانت تقاتل في أرض الروم، أنها سلمت وغنمت، وأنها ستعود في يوم كذا، فسأله الصوفي: من أنت؟ فأجابه الطير: أنا مُذهب الحزن من قلوب المؤمنين!

حكي عن أبي جعفر الأعور أنه قال: كنت عند ذي النون المصري، فتذاكرنا حديث طاعة الأشياء للأولياء، فقال ذو النون: من الطاعة أن أقول لهذا السرير يدور في أربع زوايا البيت ثم يرجع مكانه، فيفعل! قال: فدار السرير في أربع زوايا البيت وعاد إلى مكانه.

ويقص القشيري أيضا عن ذي النون المصري، أنه أقسم على شجرة ليس فيها رطب أن تنثر رطبا جنيا، فنثرت! ويقص أن حية في طاقة نرجس كانت تروّح بها على

ابن أدهم وهو نائم، وأن أبا تراب النخشبي عطش أصحابه، فضرب برجله الأرض فانفجرت عين من ماء زلال، فقال أحدهم: أريد شربه في قدح، فضرب النخشبي بيده إلى الأرض ثم رفعها وفيها قدح من زجاج أبيض، كأحسن ما رأى الشاب.

وأن شابا صوفيا اتهمه ذو النون المصري بالسرقة وهما في سفينة، فقال له الشاب: ألي تقول ذلك؟ أقسمت عليك يا رب ألا تدع واحدا من الحيتان إلا جاء بجوهرة. قال ذو النون: فإذا وجه الماء كله حيتان في فم كل منها جوهرة!!

وأن جماعة أنكروا الكرامات فخرج إليهم صوفي يركب أسدا ويقول: أين المنكرون؟

ويقول الغزالي: كان أبو الخير التيناني مشهورا بالكرامات، وإن إبراهيم الرقي صلى وراءه المغرب، فوجد أن التيناني لا يحسن قراءة الفاتحة، فقال الرقي في نفسه: ضاعت سفرتي! ثم خرج إلى الطهارة فهاجمه سبع، فعاد إلى التيناني وأخبره بما حدث من السبع، فخرج التيناني وصاح بالأسد: ألم أقل لك لا تتعرض لضيفاني؟ فتنحى الأسد! فتطهر الرقي ورجع إلى التيناني، فقال له: اشتغلتم بتقويم الظاهر فخفتم الأسد، واشتغلنا بتقويم الباطن فخافنا الأسد!

وينقل عن صوفي بالبصرة: أنه كان إذا خطرت على سره مسالة، سأل شيخه عنها، فيجيبها عنها من اصطخر!.. على بعد المسافة.

وقال أحد تلاميذ الكرخي: إنه رأى في وجه أستاذه إصابة لم تكن فيه من قبل، فسأله عنها، فأخبره الكرخي: أنه اشتهى ذات ليلة ـ وهو بالعراق ـ الطواف حول البيت، فطار إلى مكة، ثم أراد أن يشرب من زمزم، فزلت قدمه على بابها، فأصيب وجهه!..

وكان بشر الحافي يمشي على الماء! ومات صوفي في سفينة فجهزه الناس وهموا بإلقائه في البحر، فجف البحر، واستقرت السفينة على أرضه، فنزلوا وحفروا له قبرا، ودفنوه، فلما فرغوا استوى الماء فارتفع المركب!

لقد كان من رحمة الله بالأمة الإسلامية أن سلفها الصالح سلم من هذا الداء، وأن النبي وأصحابه وتابعيهم بإحسان لم يعرفوا هذه الظلمة، فسعدت بهم الدنيا، ورشدت بهم الحياة، وبلغوا أمانات الوحي بصدق، وغرسوها في أرجاء الأرض بقدرة، فكانت الحضارة الإسلامية بركة على الإنسانية كلها..

ولو أن تلامذة محمد ـ حماهم الله ـ عرتهم هذه الأوهام عن الكون والكائنات، ما فتحوا مِصْرا، ولا هدوا قُطْرا، ولا أعقبوا أثرا.

وإنه ليحزننا أن أجيالا من المسلمين ظنّت مادة الكون عجينة يشكلها الناس كيف يشاءون، فليست لها سمات معتادة ولا قوانين مطردة..

وإنه ليحزننا أن من تقربوا إلى الله ببعض العبادات يتصورون أن قرباتهم تنقض لبنات الكون، أو تشيع في نظامه الفوضى! والأغرب من ذلك أن يظل هذا التصور المعتل قائما في خطب بعض الناس ومقالاتهم، في الوقت الذي ظفر فيها العلم المادي، فغاص في أعماق الذرة، وغاب في أجواء الفضاء، وتقلب في علو الكون وسفله، يتدبر سنن الفطرة وعجائب الخلق، ويعود من هنا وهناك بالروائع».[1] انتهى.

وأود أن أؤكد أن الشيخ الغزالي رحمه الله لا ينكر الكرامات، ولكنه ينكر الغلو والمبالغة في إثباتها، وإشاعتها بالصورة التي ذكرها، حتى تكاد تلغي قوانين الوجود، وسنن الله في الخلق.

ابن تيمية يبين الأوهام في باب الكرامات:

بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان): ما يعرض لبعض الناس من أوهام وتخيلات في باب الكرامات والخوارق كان كثير منها من فعل الشياطين فقال:

(وذلك أن الخوارق منها ما هو من جنس العلم كالمكاشفات، ومنها ما هو من جنس القدرة والملك كالتصرفات الخارقة للعادات، ومنها ماهو من جنس الغنى عن جنس ما يعطاه الناس في الظاهر من العلم والسلطان والمال والغنى.

وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور: إن استعان به على ما يحبه الله ويرضاه، ويقربه إليه، ويرفع درجته ويأمره الله به ورسوله، إزداد بذلك رفعة وقربا إلى الله ورسوله، وعَلَت درجته. وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله كالشرك والظلم والفواحش، استحق بذلك الذم والعقاب، فإن لم يتداركه الله تعالى بتوبة أو حسنات ماحية، وإلا كان كأمثاله من المذنبين.

ولهذا كثيرا ما يعاقب أصحاب الخوارق تارة بسلبها، كما يعزل الملك عن

---

(١) ركائز الإيمان بين العقل والقلب للشيخ محمد الغزالي ص١١٢ وما بعدها.

ملكه، ويسلب العالم علمه. وتارة بسلب التطوعات، فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة، وتارة ينزل إلى درجة الفساق، وتارة يرتد عن الإسلام. وهذا يكون فيمن له خوارق شيطانية؛ فإن كثيرا من هؤلاء يرتد عن الإسلام، وكثيراً منهم لا يعرف أن هذه شيطانية، بل يظنها من كرامات أولياء الله، ويظن من يظن منهم: أن الله عز وجل إذا أعطى عبدا خرق عادة لم يحاسبه على ذلك، كمن يظن أن الله إذا أعطى عبدا ملكا ومالا وتصرفا لم يحاسبه عليه، ومنهم من يستعين بالخوارق على أمور مباحة، لا مأمورا بها ولا منهيا عنها، فهذا يكون من عموم الأولياء وهم الأبرار المقتصدون، وأما السابقون المقربون فأعلى من هؤلاء، كما أن العبد الرسول أعلى من النبي الملِك.

ولما كانت الخوارق كثيرا ماتنقص بها درجة الرجل، كان كثير من الصالحين يتوب من مثل ذلك ويستغفر الله تعالى، كما يتوب من الذنوب: كالزنا والسرقة، وتعرض على بعضهم، فيسأل الله زوالها، وكلهم يأمر المريد السالك أن لا يقف عندها، ولا يجعلها همته، ولا يتبجح بها؛ مع ظنهم أنها كرامات، فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها، فإني أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع، وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها! وأعرف من يخاطبهم الحجر والشجر وتقول: هنيئا لك يا وليّ الله! فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك.

وأعرف من يقصد صيد الطير، فتخاطبه العصافير وغيرها، وتقول: خذني حتى يأكلني الفقراء، ويكون الشيطان قد دخل فيها، كما يدخل الإنس، ويخاطبه بذلك.

ومنهم من يكون في البيت وهو مغلَق، فيرى نفسه خارجه، وهو لم يفتح وبالعكس، وكذلك في أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة، أو تمر به أنوار، أو تُحْضِر عنده من يطلبه، ويكون ذلك من الشياطين، يتصورون بصورة صاحبه، فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة، ذهب ذلك كله.

وأعرف من يخاطبه مخاطب، ويقول له: أنا من أمر الله، ويعده بأنه (المهدي) الذي بشر به النبي ﷺ، ويظهر له الخوارق، مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير والجراد في الهواء؛ فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يمينا أو شمالا، ذهب حيث أراد، وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي أو نومه أو ذهابه: حصل له ما أراد، من غير حركة منه في الظاهر، وتحمله إلى مكة وتأتي به! وتأتيه بأشخاص في صورة جميلة وتقول له: هذه الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك، فيقول في نفسه: كيف تصوروا

بصورة المُردان[1] ؟! فيرفع رأسه فيجدهم بلحى! ويقول له: علامة أنك أنت المهدي: أنك تثبت في جسدك شامة، فتثبت ويراها، وغير ذلك، وكله من مكر الشيطان»[2] اهـ.

الخوارق ما بين محمود ومذموم ومباح:

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان أنواع الخوارق وما يحمد منها وما يذم وما يباح:

«الخارق كشفا كان أو تأثيرا: إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين: كان من الأعمال الصالحة المأمور بها دينا وشرعا، إما واجب وإما مستحب، وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكرا، وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه، كان سببا للعذاب أو البغض، كقصة الذي أوتي الآيات فانسلخ منها (بلعام بن باعوراء) لكن قد يكون صاحبها معذورا لاجتهاد أو تقليد، أو نقص عقل أو علم، أو غلبة حال، أو عجز أو ضرورة، فيكون من جنس (برح) العابد.

و«النهي» قد يعود إلى سبب الخارق، وقد يعود إلى مقصوده، فالأول: مثل أن يدعو الله دعاء منهيا عنه اعتداء عليه. وقد قال تعالى: ﴿**ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [الأعراف: ٥٥]، ومثل الأعمال المنهي عنها إذا أورثت كشفا أو تأثيرا.

والثاني: أن يدعو على غيره بما لا يستحقه، أو يدعو للظالم بالإعانة، ويعينه بهمته: كخفراء العدو، وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال، فإن كان صاحبه من عقلاء المجانين والمغلوبين غلبة بحيث يعذرون، والناقصين نقصا لا يلامون عليه كانوا برحية. وقد بينت في غير هذا الموضع ما يعذرون فيه، وما لا يعذرون فيه، وإن كانوا عالمين قادرين كانوا «بلعامية» فإن من أتى بخارق على وجه منهي عنه، أو لمقصود منهي عنه، فإما أن يكون معذورا معفوا عنه كبرح، أو يكون متعمدا للكذب كبلعام.

فتلخص أن الخارق، ثلاثة أقسام: محمود في الدين، ومذموم في الدين، ومباح لا محمود ولا مذموم في الدين؛ فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة، وإن لم يكن فيه منفعة كان كسائر المباحات التي لامنفعة فيها كاللعب والعبث.

قال أبو علي الجوزجاني: كن طالبا للإستقامة لا طالبا للكرامة، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة. قال الشيخ السهروردي في

---

(١) المردان: جمع أمرد، وهو الشاب الذي لا لحية له.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، المجلد الحادي عشر، ص٢٩٨-٣٠١.

عوارفه: وهذا الذي ذكره أصل عظيم كبير في الباب، وسر غفل عن حقيقته كثير من أهل السلوك والطلاب. وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا عن سلف الصالحين المتقدمين، ما منحوا من الكرامات، وخوارق العادات، فأبداً نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك، ويحبون أن يرزقوا شيئا من ذلك. ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب، متهما لنفسه في صحة عمله، حيث لم يكاشف بشيء من ذلك، ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر، فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك بابا.

والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقينا (١)، فيقوى عزمه على هذا الزهد في الدنيا، والخروج من دواعي الهوى، وقد يكون بعض عباده يكاشف بصدق اليقين، ويرفع عن قلبه الحجاب، ومن كوشف بصدق اليقين أُغني بذلك عن رؤية خرق العادات؛ لأن المراد منها كان حصول اليقين، وقد حصل اليقين، فلو كوشف هذا المرزوق صدق اليقين بشيء من ذلك ما ازداد(٢) يقينا. فلا تقتضي الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع استغناء به، وتقتضي الحكمة كشف ذلك لآخر لموضع حاجته، وكان هذا الثاني يكون أتم استعدادا وأهلية من الأول. فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة، فهي كل الكرامة. ثم إذا وقع في طريقه شيء خارق كان كأن لم يقع، فما يبالي ولا ينقص بذلك. وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة.

فتعلم هذا؛ لأنه أصل كبير للطالبين، والعلماء الزاهدين، ومشايخ الصوفية(٣). انتهى.

النقطة الرابعة: الأولياء لا يملكون لأنفسهم ولا غيرهم ضرا ولا نفعا:

النقطة الرابعة في هذا الأصل عن الأولياء: أنهم رضي الله عنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، في حياتهم، أو بعد مماتهم، فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم.

وهذا قد اتضح بعد ما ذكرناه من كلام المحققين من القدامى والمحدثين عن كرامات الأولياء، وما دخلها من الأوهام والأكاذيب، حتى أفسدت عقول العوام، وأعطت هؤلاء الأولياء من السلطة في التصرف في الكون ما لم يعط لأولي العزم من الرسل، وما يجعل الكون يمضي بغير سنن تحكمه.

---

(١) في الأصل: تفننا. ومن الواضح أنه تحريف طابع أو ناسخ. وبقية الكلام تدل على ما أثبتناه.

(٢) في الأصل: لازداد يقينا، ولكن سياق العبارة يقتضي ما أثبتناه.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية «المجلد الحادي عشر» ص٣١٩.

إن اعتقاد كثير من عوام المسلمين: أن الأولياء ـ ولا سيما الكبار والمشاهير منهم ـ قد أُطلقت يدهم في الكون يتصرفون فيه كيف يشاؤون، فهم يملكون أن يضروا وينفعوا، وأن يخفضوا ويرفعوا، وأن يعطوا ويمنعوا، حتى زعم من زعم أن من يسمونهم (الأقطاب الأربعة): الجيلاني والرفاعي والبدوي والدسوقي قد تقاسموا فيما بينهم التصرف في الكون، وقد قسّموه إلى أربعة أقسام، لكل منهم (ربع) يتصرف فيه كيف يشاء!! وبدون تقيد بالسنن الكونية، وشبكة الأسباب والمسببات.

وهذا كله من مظاهر الشرك التي دخلت على المسلمين ممن جاورهم من الوثنيين ومن شابههم، فالحق أن الله وحده هو المتصرف في الكون، وهو صاحب السلطان المنفرد بالخلق والأمر والتدبير، يُميت ويُحيي، ويفقر ويُغني، ويُضْحك ويُبْكي، ويمنع ويُعطي، ويُعز ويُذل، ويَهدي ويَضل، ﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ [آل عمران: ٢٦ ، ٢٧].

﴿ **قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ** ﴾ [يونس: ٣١].

﴿ **أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ** ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾ [الأنعام: ١٧ ، ١٨].

وقد قال تعالى يخاطب خير خلقه، وخاتم رسله محمدا ﷺ: ﴿ **قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وفي سورة أخرى قال له: ﴿ **قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا** ﴾ [الجن: ٢١].

فإذا كان هذا شأن سيد الرسل وصفوة الخلق، فكيف بمن دونه من أتباعه؟!!

اللهم ارزقنا نورا نمشي به في الظلمات، وفرقانا نميز به بين المتشابهات.